حكمت الحاج

# الخَيَّاطاْتُ

مأساة في فصلين

اقتباس مسرحي عن قصص قصيرة لمحمد خضير



حكمت الحاج

# الخَيَّاطَاتُ

مأسَاةٌ في فَصلَين وَستَّةِ مَشَاهِد

مُعالَجَةٌ دراميَّةٌ مُستَلَّةٌ مِن عَشْرِ قَصصٍ قصيرةٍ للكاتبِ العراقيّ
محمَّد خضَيِّر

كتاب كتابة

سلسلة مطبوعات تصدر تحت إشراف حكمت الحاج تعنى بالتعابر بين الثقافات ونشر روح التسامح والانفتاح بين بني البشر. "كتاب كناية" مشروع ثقافي يهدف إلى إيصال الكتاب العربي إلى العالم.

*A series of books overseen by Hikmet Elhadj*
*www.metonymykinaya.com*
*kinayabooks@yahoo.com*


الخَيَّاطَات

حكمت الحاج

Isbn: 978-1-105-17379-0

الصَّابَاتُ

إلى: زينب الحاج

ويمكن أيضا،

إلى: محمد خضير

وَمَا المسْرحُ إلّا شِعرٌ مؤجَّلٌ..

زمنُ العرض: ثلاثُ ساعاتٍ على الرُّكحِ بينهما استراحةٌ لعشرينَ دقيقةٍ.

## مَلْحوظَةٌ لما قَبلَ النَّصّ، في فلسفة المعالجة و الإعداد:/

اعتمدتُ في تأليف هذه المسرحيَّة على نظريَّة ليندا هتشيون في «نظريَّة المعالجة» ( A Theory of Adaptation ) بوصفها مرشداً منهجياً لا قالباً ميكانيكيَّاً. هتشيون تُحرّر المعالجة من قيد «الأمانة للأصل» (fidelity)، وتقترح أن نفهمها فعلَ إبداعٍ موازياً ( adaptation as creative process and as palimpsestic experience). هذه المعالجة ليست «تحويلاً» مجرَّداً للقصص إلى مشاهد؛ بل هي نسجٌ تناصِّيٌّ (intertextual weaving) ينطلق من قصَّة «أمنيَّة القرد» (مركز الجاذبيَّة ونقطة الارتكاز للعمل) ويستجلب إليها في حركةٍ بَرَشتيَّةٍ ملحميَّة شخصياتِ وفضاءاتِ قصص «الشَّفيع»، و«المئذنة»، و«المملكة السوداء»، و«الأرجوحة»، و«الأسماك»، و«التابوت»، و«منزل النساء»، و«ساعاتٍ كالخيول»، و«الصرخة»، و«تاج لطيبوثة»، بحيث تتكثَّف كلُّها في وعي امرأتَين، مريم ومرمر، الخيَّاطتَين في معملٍ حكوميّ.

اخترتُ الجوقة (الكورس) بالمفهوم اليوناني (مُعلِّقاً، مُنذِراً باسمِ القَدَر، مُلخِّصاً) ممزوجاً بالمفهوم البريشتيّ (مُقاطِعاً، مُغرّباً، مُخاطباً الجمهورَ مباشرةً). الإيقاع التراجيدي متدرّجٌ في كارثيته: محادثاتُ نهارٍ خفيفة في ظاهرها، تَطوي تحتها قدراً يفترسُ بطيئاً. لكنَّ المدى الكونيّ للمسرحيَّة شِكسبيريّ، والكشفُ الأخير عن آلة الموت هو سترِندبَيرغيّ، والمسافةُ بين المُشاهِد والمنصَّة بريشتيَّة. اللغة فصحى دراميَّة، لا تُكتب كما تُكتب الرواية أو المسلسلات، بل كما ينبغي للحَنجَرة أن تَنطقَ في فضاءٍ مسرحيّ.

## الشخصيات:/

**مريم**: خيَّاطةٌ في معملٍ حكوميّ. ذاويةُ الجسد، شاردة، صوتها خافتٌ كأنَّها تكلَّمُ من قعرِ بئر. في الثامنةَ والعشرين من عمرها، لكنَّها تشي بنهاياتِ امرأةٍ في الخمسين.

**مرمر**: خيَّاطةٌ مثلها، تقاسمها الغرفةَ والعتمة والأسرار. أكثر حيويَّةً وأقلُّ هدوءاً. تعملُ كأنَّها تتقاتلُ مع الماكنة. صوتُها كصوتِ رجل.

**الجوقة أو الكورس**: سبعُ خيَّاطاتٍ من المعمل. ينعزلنَ من المشهد إلى صفِّ الجوقة ثمَّ يعدنَ إلى المكائن. هنَّ الذاكرةُ الجماعيَّة، والعينُ التي ترى من خارج الزمن.

**نزيهة (الزايرة)**: امرأة حُبلى في شهرها الأخير. زائرةُ الأرض المقدسة كربلاء. صوتُها كصوتِ امرأةٍ تَسمعُ في رأسِها قدماً ثقيلةً تنزلُ سلَّماً.

**الزوج**: رجلٌ في الخامسةِ والثلاثين، تحمل يدُه سفينةَ عزاءٍ خفيَّة في موكب حسيني في عاشوراء. لا إسم له.

**العمَّة المتَّشحة بالسواد**: (وسنسميها طوال العرض العَمَّة السَّوداء) كتلةُ لحاء لزجة، صاحبةُ بيتِ «المئذنة»، تَخفي تحت سوادها أوهامَ عِزِّ مملكةٍ سابقة.

**عليٌّ**: فتى في السابعةَ عشرة من عمره، يعيد إنتاج مفهوم **الفتوة**، يبحث عن أبيه في صندوقِ موتى. حليقُ الرأس، كلوحٍ طفولي.

**الزائر (الزاير) الجندي**: صديقُ عليّ. يحمل حقيبةً معلَّقةً بمقودِ درَّاجة. وجهه مُتعَب.

**الجدَّة**: أمُّ الجندي الغائب، تخبزُ في تنُّور. شعاع الشمس يحوِّلها إلى جذعٍ متفحِّم.

**حليمة**: طفلةٌ في السادسة من عمرها، تتأرجح في أرجوحةٍ (مَرْجوحَة: بالعامية العراقية) مشدودةٍ بين نخلتين.

**الغجريُّ**: صاحب القرد «أبو اللوز» ولاعبه. رجلٌ غامضُ القسمات، يظهر ثلاث مرَّاتٍ في المسرحيَّة كإشارةِ قَدَر.

**القرد أبو اللوز**: يمثِّله أو يؤديه ممثِّلٌ مقنَّع أو لابسٌ كساءَ قردٍ مصنوع. صامت. عيناه ثابتتان.

**الساعاتي أو مصلح الساعات**: بحَّارٌ سابقٌ في التسعين من عمره، يفكُّ ساعاتٍ قديمةً في قبوٍ في مدينة الفاو. آخرُ بحَّارة الخيلِ النجديَّة ما بين البصرة والهند.

**حامل النعش**: رجلٌ في بدلةٍ رماديَّة. يأتي ويذهبُ في كلِّ مشهد. صامتٌ لا يتكلَّم.

**المديرة**: صاحبةُ المعمل. امرأةٌ في الخمسين، بدلةٌ خاكيَّة. صوتُها كصوتِ ماكنةٍ خياطة معطَّلة.

**نساءُ بيتِ النساء السبع**: يلعبنَهنَّ خيَّاطاتُ الجوقة. كلُّ امرأةٍ في غرفةٍ منفصلةٍ تنطقُ مصيراً.

**صوت المُذيع**: يصدح من راديو قديم. "منير شَمَّا" مثلا أو "يونس بحري" أو "أحمد سعيد". لا يظهر على المنصَّة.

**ماكنة الخياطة اليدوية بالعلامة الشهيرة Singer** : (ربّما سبعٌ منها للجوقة) وكان ثمَّة منها نوع يُدار باليد ونوع يُدار بالساق، ولم يكن يخلو منها بيت عراقي. وكانت المنافسة شديدة بين ماركة سنجر Singer (نساؤنا العراقيات كن يفضلن نطقها بالصيغة الصوتية صنگر) وبين الماركة العالمية الشهيرة الأخرى Butterfly (أم الفراشة) و بفاف Pfaff لكنني اخترت علامة Singer لأنها كانت الماركة المفضلة في عائلتي إبان فترة الستينات.

## المكان:/

العراق. مدينةٌ في الجنوب. معملُ خِياطةٍ حكوميّ، وأحيانا غرفةُ خيَّاطتين فوق مطبخٍ في حيٍّ شعبيّ. تتناوبُ هذه الأمكنةُ مع فضاءاتٍ ذهنيَّة مثل: صحنُ الإمام الحسين بن علي (ع) في كربلاء المقدسة، الروضة الحيدرية، حوشُ بيتٍ مهجور، بيتُ بغايا قديم (كَلَّجية أو قحبخانة)، شاطئُ نهرٍ ربما هو شَطُّ العَرب، يشنات أو مشاحيف في الأهوار، قاعةُ توابيتَ في محطَّةِ قطار، قبوُ ساعاتيٍّ في مدينة "الفاو".

## الزمان:/

نهايةُ السبعينات وبدايةُ الثمانينات من القرن المنصرم. الحربُ على الأبواب. رائحة الخوف منتشرة في كل مكان. اللحظةُ التي ما زالت تفتحُ فمَها لتصرخ، ولكنَّها لم تصرخ بعد.

## الموسيقى التصويرية:/

يُصَاحَبُ العرضُ، وبخاصةٍ في وقتِ ما قبلَ دخول النَّظَّارة، وخلال انتظام جلوسهم على المقاعد، وحتى نزول ستارة النهاية، "أُبوذيَّات" بأصوات مشاهير الغناء الريفي العراقي على غرار داخل حسن وناصر حكيم، مقام دشت بصوت الفنانة الخالدة زهور حسين، مع صوت أداء مُبرَّز للفنان فاضل عواد وهو يؤدي "طور الصُّبيّ" في تسجيل مشهور، ويمكن مزج صوت الراحل رياض أحمد وهو يؤدي "الطور" نفسه.

## الإرشاد المسرحي الخاص بالإخراج:/

> * تتوزّع جوقة الخيّاطاتُ السبعُ على مكائنهنّ في صفٍّ واحد. وليست المكائنُ كلها سواءً: فثلاثٌ منها «سنجر» سوداءُ ثقيلةٌ بدوّاسة، نُقِش على كلٍّ منها اسمُها الذهبيُّ وقد بهَتَ على قَدْرِ ما توارثَتْه من أيدٍ؛ لا تتشابهُ واحدةٌ بالأخرى، إذ لكلٍّ خدوشُها وعُمرُها وحكايتُها. والأربعُ الباقيات من ماركة «الفراشة» حمراءُ العلامة، خفيفةٌ متماثلة، كأنها أتت من المعمل الحكوميّ. إلى "السنجراتِ" تجلسُ الكبرياتُ عُمراً ومَن ورِثْنَ المهنةَ عن أمّهاتٍ وجدّات؛ وإلى "الفراشاتِ" تجلسُ الصغيراتُ، ومريمُ ومرمرُ منهنّ. لا تُذكَرُ هذه المكائنُ وأنواعها في الحوار البتّةَ، ولا يُشارُ إليها بكلمة؛ غير أنّ تباينَها قائمٌ في المشهد منذ أوّلِ لحظةٍ تُرى فيها الجوقةُ، التي يمكن في كل الأحوال أن تمثل صوت القَدَر.

دخلت مكائن "سنجر/Singer" إلى العراق في العهد العثماني، وصار لها حضور واضح في الموصل وبغداد والبصرة مع مطلع القرن العشرين. أما Butterfly/الفراشة، الصينية الصنع، فالأرجح أنها دخلت العراق في أواخر الخمسينات، وشاعت في البيوت العراقية في الستينات بوصفها منافسًا عمليًا وأرخص سعراً أو أكثر إتاحة من "سنجر" الأمريكية الباهظة، ماكنة الأمّهات والجدّات والمهور الغالية عند العوائل الراقية؛ بينما "الفراشة" هي ماكنة المعمل الحكومي والزمن الاشتراكي، صينية رخيصة وبمتناول نساء الطبقة الوسطى العراقية.

# الخَيَّاطَاتُ

## # الفَصْلُ الأَوَّل

### « تقاسيمٌ على وَتَرِ الرَّبابة »

**المَشهَدُ الأَوَّل/**

(الرُّكْحُ مقسومٌ إلى ثلاثة أقسام. إلى اليمين: ستَّةُ مكاتبَ خياطةٍ مصفوفةٌ في صفَّين، تجلسُ خلف كلِّ واحدٍ منها امرأةٌ بمنامةٍ (صَدْريَّة) رماديَّةٍ موحَّدة. في الوسط: مساحةٌ خاوية، حجرٌ أو كتلةُ خشبٍ بارزةٌ في منتصفها، يعملُ كمنبرٍ للجوقة. إلى اليسار: حاجزٌ خشبيٌّ مغطًّى بقماشٍ أسود. هذا الحاجز سيُكشف في النهاية عن تابوت. ضوءٌ صناعيٌّ صارخ. صوتُ مكائنِ خياطةٍ يهدر بإيقاعٍ متتابع: طاق. طاق. طاق. تتزامنُ حركاتُ الخيَّاطاتِ السبعِ مع الإيقاع كآلاتٍ متطابقة. مريم في الصفِّ الأمامي إلى يمين المُشاهد. مرمر إلى يسارها. الساعة السابعة صباحاً.)

(يستمرُّ الهديرُ ثلاثين ثانيةً كاملةً قبل أن ينطق أحد. الجمهور يتعوَّد على الإيقاع كأنَّه يتعوَّد على ركلةٍ متكرِّرة.)

(يدخلُ حامل النعش من يسار الركح، يمشي ببطءٍ خلف الخيَّاطات دون أن ينظرنَ إليه، يجتاز المنصَّة كاملةً، ويخرج من اليمين. صوتُ المكائن ينخفض تدريجياً حتى يصير همساً.)

(تنهضُ خيَّاطةٌ من آخر الصفِّ. هي الأولى من الجوقة. وتتَّجه إلى "الحجر" في الوسط. تخاطب الجمهور مباشرةً.)

الجوقة ١:

سيداتي آنساتي سادتي.

في معملٍ ما، في مدينةٍ نهريَّةٍ ما،

في بلدٍ ما، يُسمَّى بَلَدَنا،

تخيطُ ثلاثُمئةِ امرأةٍ

ثلاثةَ آلافِ قميصٍ في النهار الواحد.

القميصُ يُرسلُ إلى الجنود.

الجنودُ يُرسلونَ إلى الجبهة.

الجبهةُ تُرسلُ كما سترَونَ

شيئاً آخرَ إلى البلد.

(تلتفت إلى الخيَّاطات، ثمَّ تعود إلى الجمهور.)

الجوقة ١:

هذه مريم. وهذه مرمر.

واحدةٌ من قريةٍ على ضفاف الفرات.

الأخرى من قريةٍ على دجلة.
كلتاهما جاءتا إلى المدينة
لأنَّ القريتَين لم تعودا تتَّسعان للأحلام.
الواحدةُ تنامُ في سرير.
الأخرى تنامُ في سرير.
السريرانِ متجاوران، والوسادتانِ متلاصقتان.
لكنَّ النومَ بعيدٌ بعيدٌ بعيدْ.

(تعودُ إلى مكانها. يرتفعُ صوتُ المكائنِ مرَّةً أخرى. تنهضُ خيَّاطتانِ أخريانِ. الجوقة ٢ و٣ . وتأتيانِ إلى الحجر.)

الجوقة ٢: الماكنةُ لا تتكلَّم.
الجوقة ٣: الإبرةُ لا تنزفُ.
الجوقة ٢: الخيطُ يدخلُ من ثقبٍ ضيّق.
الجوقة ٣: ويخرجُ من الجهةِ الأخرى كأنَّ شيئاً لم يكن.
الجوقة ٢: لكنَّ شيئاً كان.
الجوقة ٣: شيئاً كان.

(صمت. تعودانِ. ينخفضُ صوتُ المكائنِ تدريجياً حتى يتلاشى. تتوقَّفُ الخيَّاطات. ترفعُ مرمرُ رأسها أوّلاً، تتأمَّلُ يديها، ثمَّ تلتفتُ إلى مريم.)

مرمر: قدمايَ.

(وقفة.)

مريم: ماذا فيهما؟

مرمر: متورِّمتان.

(صمت.)

مريم: منذ متى؟

مرمر: منذ سنتين.

مريم: ولِمَ لَمْ تقولي قبل اليوم؟

مرمر: كنتُ أفكِّر أنَّ التورُّمَ سيزول لوحده.

(وقفة.)

مريم: لم يَزل.

مرمر: لم يَزل.

(صمت طويل. تنحني مرمرُ تحت المكتب، تفكُّ حذاءها، تدلِّكُ قدماً ثمَّ الأخرى. مريم تنظرُ إلى يديها.)

مريم: ماكنةُ الخياطةِ ستفجِّر دمي يوماً ما.

مرمر: ماذا قلتِ؟

مريم: لا شيء. كنتُ أستعيرُ كلامكِ القديم.

مرمر: متى قلتُ ذلك؟

مريم: قبل سنتين. حين كانت قدمايَ متورِّمتين.

(تنظرُ مرمرُ إلى مريم نظرةً طويلة.)

مرمر: لم تكوني تَشْكينَ من قدميكِ يا مريم.

مريم: لم أكن.

مرمر: إذن ماذا حصل؟

مريم: (تفكِّر. ثمَّ ببطء) لستُ أدري الآن.

(صمت طويل. صوتُ جرس أو بوقٍ يأتي من بعيد. ترفع الخيَّاطاتُ السبعُ رؤوسهنَّ معاً. ثمَّ يَعُدْنَ.)

الجوقة ٤ (دون أن تنهض من مكانها) : هذا جرس تبديل الفترة.

الجوقة ٥ (دون أن تنهض) : بوقُ مَنْ لمْ يأكل، ولنْ يأكل.

الجوقة ٦ (دون أن تنهض) : بوقُ الراحةِ التي لا تريحُ أحداً.

(تدخل المديرة. امرأةٌ في الخمسين، بدلةٌ خاكيَّة، نظَّاراتٌ سوداء، شعرٌ مشدودٌ إلى الخلف. تتوقَّفُ في وسط المنصَّة. الخيَّاطاتُ يخفضنَ رؤوسهنَّ.)

المديرة: الصوتُ منخفضٌ اليوم. لماذا؟

(صمت.)

المديرة: الصوتُ يجبُ أن يكون متواصلاً. كلُّ ثانيةٍ من صمتٍ هي ثانيةُ خيانة.

(تلتفت إلى مرمر.)

المديرة: أنتِ. هيه.. لِمَ توقَّفتِ؟

مرمر: قدمايَ.

المديرة: قدماكِ ماذا؟

مرمر: متورِّمتان.

المديرة: كلُّ قدمٍ في هذا البلدِ متورِّمة. لكنَّ القمصانَ لا تتورَّم. القمصانُ تنتظر.

(تلتفتُ إلى الجمهور، تكشفُ بيدها عن قميصٍ معلَّقٍ في الخلفِ لم نكن نراه.)

المديرة (إلى الجمهور) : ها هو القميصُ يا سادة. ليس مجرَّدَ قميص. هو وجهُ شابّ. هو كتفُهُ المفتول. هو صدرُه الذي سيُخلعُ عنه القميصُ في الجبهةِ ذاتَ ظهيرة، فيجدُه المضمِّدُ يتورَّمُ بشيءٍ آخر. ليس القدمَين. شيءٍ أعمقَ بقليل.

(وقفة.)

المديرة: لكنَّكم لستم من يخيطُ القميص. هنَّ من يخطنه.

(تلتفتُ إلى مرمر.)

المديرة: عودي إلى مكانك.

(تخرجُ المديرة. صمت. صوتُ بوقٍ ثانٍ يأتي من بعيد، أطولَ هذه المرَّة. الخيَّاطاتُ ينهضنَ معاً، ينزلنَ من خلف مكاتبهنَّ، يصطففنَ في خطٍّ مستقيمٍ مواجهٍ للجمهور.)

الجوقة كاملةً (بصوتٍ واحد، منخفضٍ، كدعاءٍ يُهمس) :

طاق

طاق

طاق

طاق

طاق

طاق

طاق

طاق

طاق

طاق

(تلتفتُ كلُّ خيَّاطةٍ إلى زميلتها، ثمَّ تخاطبُ الجمهور.)

الجوقة ١: خيَّاطة.

الجوقة ٢: خيَّاطة.

الجوقة ٣: خيَّاطة.

الجوقة ٤: خيَّاطة.

الجوقة ٥: خيَّاطة.

الجوقة ٦: خيَّاطة.

الجوقة ٧: خيَّاطة.

(صمت.)

الجوقة ١ (إلى الجمهور) :

في القريةِ التي خرجَتْ منها مريم

كان الفراتُ يفيضُ كلَّ ربيع.

كانوا يقولون: الفيضانُ بَركة.

ثمَّ بدأ الفراتُ ينحسر.

أخذوا الماءَ إلى مكانٍ آخر.

أخذوا الأرضَ إلى مكانٍ آخر.

أخذوا الأبَ إلى مكانٍ آخر.

وَبقيَتْ مريم.

الجوقة ٢ (إلى الجمهور) :

في القريةِ التي خرجَت منها مرمر

كان دجلةُ يفيضُ أيضاً.

ثمَّ كما سيفعلُ كلُّ شيء.

انحسر.

أخذوا الأخَ إلى مكانٍ آخر.

أخذوا البيتَ إلى مكانٍ آخر.

وَبقيَتْ مرمر.

الجوقة ٣ (إلى الجمهور) :

الباقياتُ يلتقينَ في معملٍ في المدينة.

تلتقي بقيَّتانِ فلا تكفيانِ امرأة.
تلتقي بقيَّتانِ فلا تكفيانِ امرأتَين.
لكنَّهما يخيطانِ القمصان.
والقمصانُ تنتظر.

(تعودُ الخيَّاطاتُ إلى مكاتبهنَّ. يرتفعُ صوتُ المكائنِ تدريجياً حتى يصلَ ذروتَه. ضوءٌ صارخ. ثمَّ ظلمةٌ مفاجئة.)

(ضوءٌ أصفرُ خفيف. المكاتبُ في الخلفيَّةِ خامدة. تتوسَّطُ المنصَّةَ مريم ومرمر، تجلسانِ على كرسيَّينِ خشبيَّينِ متقابلَين، مع صندوقٍ صغيرٍ بينهما. خلفهما، الجوقةُ تستديرُ بظهورها إلى الجمهور، فتختفي وجوههنَّ. حامل النعش يدخل من جديد، يجتاز المنصَّة من الخلف، ثمَّ يخرج.)

مرمر: أيَّامُنا تتشابهُ.
مريم: كالقمصان.
مرمر: كالدشاديش.
(وقفة.)
مريم: في القريةِ، كانت أمِّي تخيطُ هي أيضاً.
مرمر: كلُّ أمَّهاتنا خيَّاطات.
مريم: لا. أمِّي كانت تخيطُ بيدها فقط. لم يكن لديها ماكنة خياطة.
مرمر: ماكنةُ اليدِ أفضل.

مريم:  كيف؟
مرمر:  لأنَّها لا تهدر. تستطيعينَ أن تفكّري وأنتِ تخيطين.
(وقفة.)
مريم:  كانت أمّي تخيطُ كفناً.
(صمت.)
مرمر:  لمن؟
مريم:  لمْ تقلْ لنا.
مرمر:  أنتِ تكذبين.
مريم:  نعم. أكذب.
(وقفة.)
مريم:  في الحقيقة، كانت تخيطُ مناديلَ للعرائس. لكنَّ المناديلَ كانت بيضاء، والخيطُ أبيض، فكانت تبدو لي كأكفان.
مرمر:  كلُّ شيءٍ أبيضَ يبدو لكِ كَكَفن.
مريم:  كلُّ شيءٍ أبيضَ يبدو لي كَكَفن.
الجوقة:
"في غُرَفِ العمليات
كان نِقابُ الأطباءِ أبيضَ
لونُ المعاطفِ أبيض
تاجُ الحكيماتِ أبيضَ
أرديةُ الراهبات

الملاءاتُ
لونُ الأسرّةِ
أربطةُ الشاشِ والقُطْن
قرصُ المنوِّمِ
أُنبوبةُ المَصْلِ
كوبُ اللَّبن
كلُّ هذا يُشيعُ بِقَلْبي الوَهَنْ.
كلُّ هذا البياضِ يذكِّرني بالكَفَنْ!
فلماذا إذا متُّ..
يأتي المعزونَ مُتَّشِحينَ
بشاراتِ لونِ الحِدادْ؟
هل لأنَّ السوادْ
هو لونُ النجاة من الموتِ
لونُ التميمةِ ضدّ الزمنْ؟
ضِدُّ منْ؟
ومتى القلبُ في الخَفَقَانِ اطْمأَنْ؟
بين لونين أستقبِلُ الأَصدِقاء
الذينَ يرون سريريَ قبرا
وحياتيَ دهرا
وأرى في العيونِ العَميقةِ

لونَ الحقيقةِ
لونَ تُرابِ الوطنْ!"

(صمت طويل.)

مرمر: مريم.
مريم: نعم؟
مرمر: هل تذكرينَ يوم أن جئتُ إلى الغرفةِ أوَّل مرَّة؟
مريم: أذكر.
مرمر: كانت الغرفةُ خاوية. أربعةُ جدران، نافذة، سريرٌ واحد.
مريم: كان سريراً واحداً.
مرمر: ثمَّ جئتُ بسريرٍ ثانٍ.
مريم: ثمَّ جئتِ بسريرٍ ثانٍ.
مرمر: ووضعتُ السريرَين بحيثُ تتلاصقُ الوسادتان.
مريم: ووضعتِهما بحيثُ تتلاصقُ الوسادتان.
(وقفة.)
مرمر: لِمَاذا تكرِّرين كلامي؟
مريم: لأنِّي لا أملكُ كلامي.

(صمت طويل. تنهضُ مرمر، تدور حول الكرسيِّ مرَّة، ثمَّ تجلسُ مرَّةً أخرى.)

مرمر:  في الصباحِ غداً يومُ عطلتنا.

مريم:  يومُ عطلتنا.

مرمر:  سأخرجُ إلى السوق.

مريم:  أيِّ سوق؟

مرمر:  سوقِ الجمعة.

مريم:  سوق الجمعة!

مرمر:  ألا تعلمين أنَّه يوجدُ مثلُ هذه السوق؟

مريم:  ألا تعلمين أنَّه يوجدُ مثلُ هذه السوق؟

مرمر (ملتفتة مدهوشة) : ماذا قلتِ الآن؟

مريم:  لم أقل شيئاً. كنتُ أستعيرُ كلامكِ القديم.

مرمر:  متى قلتُ ذلك؟

مريم:  قبل أسبوع. وقبل شهر. وقبل سنة. كلَّ يوم جمعة.

مرمر:  أأقولُه كلَّ يوم جمعة؟

مريم:  كلَّ يوم جمعة.

(صمت.)

مرمر:  يا الله.

مريم:  يا الله.

(وقفة طويلة. تلتفتُ إحدى نساءِ الجوقة، الجوقة ١، إلى الجمهور.)

الجوقة ١ (من مكانها) :
سيداتي آنساتي سَادتي،
الزمنُ هنا لا يتقدَّمُ كالأنهر.
الزمنُ هنا يدورُ كالماكنة.
الإبرةُ تنزل، ثمَّ تصعد، ثمَّ تنزلُ ثانية.
في كلِّ نزولٍ ثقبٌ جديدٌ في الجمعةِ نفسها.
حتى تصيرَ الجمعةُ كلُّها ثقوباً.
(تعود.)
مرمر: هل تأتينَ معي يا مريم؟
مريم: إلى السوق؟
مرمر: نعم.
مريم: لا.
مرمر: لِمَ لا؟
مريم: لأنَّ السوقَ تبيع.
مرمر: طبعاً تبيع. السوقُ تبيع.
مريم: ونحنُ لا نملكُ ما يشتري.
مرمر: لدينا مرتَّبُ نهاية الشهر.
مريم: المرتَّبُ يكفي للكَفَن. لا يكفي للسوق.
مرمر: أنتِ كاذبةٌ يا مريم.

مريم: أعلم.

(وقفة.)

مرمر: أريدُ أن أشتريَ قِلادة.

مريم: قِلادة؟

مرمر: قِلادةً من الخزف.

مريم: لِمَ من الخزفِ بالذات؟

مرمر: لأنَّها رخيصة.

مريم: أيُّ شيءٍ رخيصٍ يا مرمر؟

مرمر: كلُّ شيءٍ أملكُ أن أشتريَه رخيص.

(وقفة طويلة.)

مرمر: وكلُّ شيءٍ لا أملكُ أن أشتريَه غالٍ.

(صمت.)

مريم: هذه معادلةٌ كاملة.

مرمر: هذه معادلةٌ كاملة.

(صمت طويل. يعودُ صوتُ المكائنِ تدريجياً من الخلفيَّة. الخيَّاطاتُ السبعُ يستدرنَ إلى الجمهورِ مرَّةً ثانية، ينهضنَ.)

الجوقة كاملةً (يرفعنَ أيديهنَّ كأنَّهنَّ يخطنَ في الفراغ) :

طاق

طاق

طاق

طاق

طاق

طاق

طاق

طاق

طاق

(تخفتُ الأضواء. ظلمةٌ كاملة. صوتُ المكائنِ يستمرُّ في الظلامِ لعشرِ ثوانٍ. ثمَّ ينقطعُ فجأة.)
(صمتٌ ثقيل.)
(ينبعثُ صوتُ بوقِ عزاءٍ من بعيد. تتسلَّلُ نغمةُ صنوجٍ خافتةٍ تحته.)

## المَشهَدُ الثَّاني/

(ضوءٌ خافت. نحن في الغرفة. منصَّةٌ مقسومةٌ نصفَين: نصفُ يمين، السلَّمُ الحجريّ، ينزلُ في عتمة. نصفُ يسار، فسحةٌ صغيرةٌ أمام بابِ الغرفة، مع نافذةٍ تطلُّ على شارعٍ ضيِّق. الساعةُ السابعةُ من صباحِ يومِ جمعة. الإضاءةُ توحي بنهارٍ بطيءٍ يتشكَّل.)
(مريم جالسةٌ في أعلى السلَّم، ملتفعةٌ بغطاءِ فراشٍ أصفرَ ذي مربَّعاتٍ سوداء. شعرها منتشرٌ غير مرتَّب. مرمر في الأسفل، نسمعها ولا نراها.)

(تدخل الجوقة ١ من جانبِ المنصَّة، تقفُ على الحجرِ (النتوء الخشبي) الذي ما زال موجوداً في عمقِ المسرح.)

الجوقة ١:

إنَّه يومُ العطلة. وفي يومِ العطلة، لا تخيطُ الخيَّاطة.

لكنَّ الخيَّاطةَ التي لا تخيطُ ليست خيَّاطة.

فماذا تكونُ إذن؟

(وقفة.)

الجوقة ١:

امرأة. وهذه مسألةٌ أكثر صعوبة.

(تجلسُ على الحجر.)

صوتُ مرمر (من أسفل، حاداً) : يا مريم. أنتِ محطَّمة.

مريم: إنَّ رجليَّ تعبتانِ وتؤلمانني.

صوت مرمر: بإمكانكِ أن ترتاحي أيَّاماً وتتركي العملَ خلفَ الماكنة.

(صمت.)

مريم: كلامكِ ليس منطقياً.

صوت مرمر: كيف؟

مريم: إذا تركتُ الماكنة، فمن يدفعُ إيجارَ الغرفة؟

صوت مرمر: أنا.

مريم: وإذا تورَّمَت قدماكِ أنتِ، يا مرمر؟

(وقفة طويلة.)

صوت مرمر: حدِّثيني بصوتٍ عالٍ. إنَّ السماءَ صحوٌ كما أراها من نافذةِ الحمَّام. هل ستخرجين معي إلى السوق؟

مريم: لا.

صوت مرمر: أيُّ سوقٍ؟

مريم: أيُّ سوقٍ.

صوت مرمر: كرَّرتِ ما قلتُه مرَّةً أخرى يا مريم.

مريم (ببطء) : نعم.

(صمت.)

صوت مرمر: سأشتري قطعةَ كبدٍ للغداء.

مريم: كبد؟

صوت مرمر: نعم.

مريم: كبدُ من؟

صوت مرمر: كبدُ خروف.

مريم: كيف نعرفُ أنَّها كبدُ خروف؟

صوت مرمر: لأنَّ القصَّابَ يقول.

مريم: ولِمَ نصدِّقُ القصَّاب؟

(صمت طويل.)

صوت مرمر: يا مريم.

مريم: نعم.

صوت مرمر: أنتِ متعبةٌ هذا الصباح.

مريم: أنا متعبةٌ كلَّ صباح.

صوت مرمر: لكنَّكِ في هذا الصباحِ متعبةٌ أكثر.

(وقفة.)

مريم: يمكن.

صوت مرمر: رتِّبي الغرفةَ في غيابي. هل تغسلينَ ملابسكِ؟

مريم: أيَّةُ ملابس؟ لا... إنَّها أشياءٌ قديمةٌ بطُل استعمالها وهي غير نافعة.

صوت مرمر: لا بدَّ من تجميلِ الغرفة.

مريم: الغرفةُ ضيِّقة. لا تتَّسعُ للتجميل.

صوت مرمر: أنتِ تنفقينَ محاولاتي في تجميلها على الإنكار.

(تنهضُ الجوقة ١ من الحجر، تتَّجه إلى منتصفِ المنصَّة. ثلاثُ خيَّاطاتٍ أخرياتٌ يدخلنَ من خلف الكواليس، ينضممنَ إليها. الأربعُ يقفنَ في صفٍّ مواجهٍ للجمهور.)

الجوقة ١ (إلى الجمهور):

اسمعوا أيُّها الجالسون. الحوارُ بين مريم ومرمر ليس حواراً.

الجوقة ٤ (إلى الجمهور):

هو امرأةٌ واحدةٌ تقسِّمُ صوتَها إلى نصفَين لكي تتحمَّل.

الجوقة ٥ (إلى الجمهور):

النصفُ الأعلى يتكلَّمُ بخفوت.

النصفُ الأسفلُ يتكلَّمُ بحدَّة.

كلاهما يكذب.

الجوقة ٦ (إلى الجمهور) :

كلاهما لا يكذب.

كلاهما يقولُ ما يستطيع.

هل تفهمونَ الفرق؟

(صمت. تعدنَ.)

صوت مرمر (من الأسفل، ترتفعُ نبرتها) : مريم.

مريم: نعم.

صوت مرمر: ذاتَ يومٍ سأقذفُ نفسي من هذا السلَّم.

(وقفة طويلة.)

مريم: لِمَ تقولينَ ذلك؟

صوت مرمر: لأنَّ السلَّمَ هنا.

مريم: السلَّمُ موجودٌ منذ بَنوا الدار.

صوت مرمر: نعم. وأنا موجودةٌ هنا منذ سنتين.

مريم: سنتانِ ليست كثيرة.

صوت مرمر: السلَّمُ بَنوه في يومٍ واحد. أنا أتعرَّضُ له كلَّ يوم.

(صمت.)

مريم: مرمر؟

صوت مرمر: نعم؟

مريم: هل أنتِ تبكين؟

صوت مرمر: لا.

مريم: لِمَ صوتكِ مختلف؟

صوت مرمر: لأنَّ الدماء ساخنةٌ في قَسَمات وجهي.

(صمت.)

صوت مرمر: هل بدأتِ تموتين؟

مريم (صامتةً ثمَّ) : نعم.

(صمت طويل. الجوقةُ تعدنَ من جديد.)

الجوقة ٢ (تتقدَّم) :

في منتصفِ هذا المشهد، حدثٌ مهمّ: امرأةٌ اعترفَت لامرأةٍ بشيءٍ. لن أقولَ لكم ما هو. لكنَّه مهمّ.

(تعود.)

(تخرجُ مرمرُ من الكواليسِ السفلى. لأوَّل مرَّةٍ نراها. تلفُّ منشفةً حول رأسها، ثوبُ أو قميص نوم طويل، يدُها على حاجزِ السلَّم. تصعدُ ثلاثَ درجاتٍ، ثمَّ تتوقَّف، تنظرُ إلى أعلى. ترى مريم.)

مرمر: ما زلتِ في مكانكِ.

مريم: ما زلتُ.

مرمر: هل أُسندكِ إلى الحمَّام؟

مريم: لا. سأهبطُ بعد قليل.

(تنظرانِ إلى بعضهما. وقفة طويلة.)

مرمر: يا مريم.

مريم: نعم.

مرمر: دعي بابَ الخروجِ مفتوحاً ليدخلَ ضوء. فالدَّهليزُ مظلم.

(تستديرُ مرمر، تهبطُ السلَّمَ مرَّةً ثانية. صوتُ (قُبقابها) يرتطمُ بالحجر. مريم تستلقي على إحدى الدرجاتِ كأنَّها تستكين. تبدو كجنينٍ في رَحِمٍ.)

(يُسمعُ من الخارج. خارجِ النافذة. صوتُ خطوات. ثمَّ صوتُ رجلٍ ينادي.)

صوت الغجري (من خارجِ النافذة) : صباحُ الخيرِ يا أميرة الأميرات.

(تنتفضُ مريم. تنهضُ ببطء. تتَّجهُ إلى النافذة.)

مريم (تُطلُّ من النافذة) : من؟

صوت الغجري: أنا. ومعي أبو اللوز.

مريم: مَنْ أبو اللوز؟

صوت الغجري: القردُ يا أميرة، القرد. هل تطلبُ الأميرةُ شيئاً من القردِ ليفعله؟

(تنزلُ من نصفِ المنصَّةِ الأعلى إلى الأسفل، فيدخلُ من جانبِ المنصَّةِ الغجريُّ مع القرد. القردُ يلبسُ قناعاً، يمشي مترنّحاً، يرتدي صدريَّةً حمراء. الجوقةُ كلُّها تتوقَّفُ عن الحركة، تراقب. صمت.)

الغجري: نعم. نعم. هيا. هيا. أبو اللوز؟ هل أريتَ الأميرةَ كيف يمشي المديون؟

(القردُ يدورُ كالمغزل، يترنَّح، يقلِّدُ شخصاً ينوءُ تحتَ ثِقَل الديون.)

مريم (تضحكُ ضحكةً مريضة، لأوَّل مرَّةٍ في المسرحيَّة) : يا الله. شنو هذا؟ معقول؟

الغجري:  والآنَ يا أبو اللوز. كيف يمشي ثاكلٌ بعد أن دفنَ ابنه؟

(القردُ يتوقَّف. ينظرُ إلى الغجري. لا يتحرَّك.)

الغجري:  أبو اللوز؟

(القردُ ما زال ساكناً.)

الغجري:  لا تتكاسل. هيا أرِها. لقد جئنا من أجلها. من أجل الأميرة. هل نسيت؟

(القردُ يجلسُ على الأرض، يحتضنُ ذراعَيه حول نفسه، يهتزُّ ذهاباً وإياباً.)

مريم (يختفي الضحكُ من وجهها) : لا أريدُ أن أرى ذلك.

الغجري:  الأميرةُ تطلب، والقردُ يؤدِّي. هذه هي القاعدة.

مريم:  لم أطلب.

الغجري:  طلبتِ يا أميرة. حين خرجتِ إلى النافذة، طلبتِ. حين نزلتِ السلَّم، طلبتِ.

(صمت.)

مريم:  ماذا يتمنَّى القرد؟

الغجري:  أمنيَّةٌ سخيفةٌ لا تُطاق.

(يضحكُ ضحكةً مفاجئةً قويَّةً. تجفلُ مريم. الجوقةُ تتحرَّكُ خطوةً إلى الأمام، ثمَّ تتجمَّد.)

الغجري:  أمنيَّةٌ طريفة.

مريم:  ما هي؟

الغجري:  أن لا يكونَ قرداً.

(صمت.)

مريم:  وإذا لم يكن قرداً، ماذا يكون؟

الغجري:  إنه لا يعرف. وتلك هي المشكلة.

(وقفة طويلة.)

مريم (تتراجعُ خطوةً إلى الخلف) : أودِّعك.

الغجري:  لم آخذ شيئاً منك.

مريم:  نعم. أخذت.

الغجري:  ماذا أخذت؟

مريم:  أريتَني أمنيَّتي.

(صمت.)

الغجري (ببطء) : وما هي أمنيَّتُكِ يا أميرة؟

مريم (بصوتٍ خافتٍ، إلى الأرض) : أن لا أكونَ خيَّاطة.

الغجري:  وإذا لم تكوني خيَّاطة، ماذا تكونين؟

مريم:  إنني لا أعرف. وتلك هي المشكلة.

(يضحكُ الغجريُّ ضحكةً مكتملةً، طويلةً. القردُ ينهضُ ببطء. الجوقةُ كاملةً تستديرُ ببطء، فتصبحُ مواجهةً للجمهور.)

الغجري (إلى الجمهور) :

أيُّها السادة، أيَّتها السيِّدات.

هذا القردُ يتمنَّى أن لا يكونَ قرداً.

هذه المرأةُ تتمنَّى أن لا تكونَ خيَّاطة.

أنا أتمنَّى أن لا أكونَ غجريَّاً.

وكذلك أنتم.

ماذا تتمنون؟

(يلتفتُ إلى مريم.)

الغجري: لكنَّ المشكلةَ، يا أميرة، أنَّنا كلَّنا لا نعرفُ ما الذي نكونُه إذا لم نكن.

مريم: لا.

الغجري: بلى.

مريم: ارحل. ارحل، أرجوك. أنت تتعبني. كنت أنتظر أن تُضحكني.

الغجري: سأرحل. لكنَّ السؤالَ سيبقى.

(يجرُّ القردَ بالسلسلة. يخرجُ ببطء. مريم تنظرُ إلى مكانِ وجودهما. الجوقةُ كاملةً تتقدَّم، تحيطُ بها، يضعنَ أيديهنَّ على كتفَيها.)

الجوقة ١: عودي إلى السلَّم.

الجوقة ٢: عودي إلى الغرفة.

الجوقة ٣: عودي إلى الصفِّ الأوَّل.

الجوقة ٤: عودي إلى الماكنة.

الجوقة ٥: عودي إلى القميص.

الجوقة ٦: عودي.

الجوقة ٧: عودي.

(مريم تستديرُ ببطء، تصعدُ السلَّمَ مرَّةً أخرى، تجلسُ في مكانها السابق، تلتفعُ بالغطاءِ الأصفر.)

(الجوقةُ تنسحبُ إلى مكاتبها. صوتُ بوقِ المعملِ يأتي من بعيد. تبدأُ الإضاءةُ تخفتُ ببطء.)

(تدخلُ مرمر من الكواليس، ملابسُها كاملة، عباءتها على كتفَيها، تحملُ كيساً كبيراً من ورق أسمر. تنظرُ إلى مريم في أعلى السلَّم.)

مرمر: خرجتُ إلى السوق.

مريم: رأيتُ.

مرمر: اشتريتُ كبداً.

مريم: لأيِّ شيء؟

مرمر: للغداء.

مريم: لستُ جائعة.

مرمر: لستِ جائعةً منذ سنتين.

(صمت.)

مرمر: هل رأيتِ الغجري؟

(تتجمَّدُ مريم.)

مريم: رأيتِهِ أنتِ أيضاً؟

مرمر: في السوق. كان يدورُ بقرده.

مريم: ماذا أرى القردُ في السوق؟

مرمر:  أرى الجميعَ كيف يمشي ضاحكٌ مكسورُ الفؤاد.

(وقفة طويلة.)

مريم:  أعَرفتِ أمنيَّةَ القرد؟

مرمر:  لا.

مريم:  سأخبرك.

مرمر:  لا تخبريني.

مريم:  لِمَ؟

مرمر:  لأنَّني أعرفُها.

(صمت طويل.)

مرمر:  هي أمنيَّتُنا كلُّنا.

(صمت كامل. الجوقةُ يستدرنَ بظهورهنَّ إلى الجمهور. الإضاءةُ تنخفضُ تدريجياً. يُسمعُ صوتُ راديو من بعيد.)

صوت المذيع (من الراديو، رسميٌّ وخشبيٌّ ميِّت) :

أعزائي المستمعين الأكارم، أسعد الله مساءكم. هنا إذاعةُ بغداد. وإليكم النشرةُ الإخباريَّة. أعلنَت القيادةُ السياسيَّةُ الحكيمة اليوم تشكيلَ لجانٍ خاصَّةٍ لزيادةِ الإنتاجِ في معاملِ النسيجِ والخياطةِ الحكوميَّة. ودعَت الجماهيرَ النسائيَّةَ العاملةَ إلى مضاعفةِ الجهدِ في سبيلِ المعركةِ القوميَّةِ المقدَّسة.

(ينقطعُ صوت المذيع في الراديو. ظلمةٌ كاملة.)

(صمتٌ ثقيل. عشرُ ثوانٍ.)
(ينبعثُ صوتُ صنوجٍ وطبولٍ من البعيد. صوتُ موكبِ عزاءٍ كربلائي.)

## المَشهَدُ الثَّالِث/

(ضوءٌ برتقاليٌّ خفيف. المنصَّةُ تغيَّرَت. اختفَت مكاتبُ الخياطة. اختفى السلَّم. الآن نحن في فضاءٍ ذهنيٍّ. حلمٌ أو حالةُ هذيان. في عمقِ المنصَّةِ يلوحُ شكلٌ ضخمٌ لقبَّةٍ ذهبيَّة. قبَّةُ ضريحِ الإمامِ الحسين (ع). على جانبِ المنصَّة، مجموعةٌ من النساءِ الملتفعاتِ بالسواد. هنَّ الجوقة، ولكن قد غيَّرنَ هيئتهنَّ. حامل النعش يقفُ في أقصى المنصَّةِ من اليسار. على الأرض، فُرشَت سجَّادة، تجلسُ عليها نزيهة. حُبلى في شهرها الأخير، عباءةٌ سوداء، يدُها على بطنها.)
(يدخلُ صوتُ الموكبِ تدريجياً. الصنوج، الطبول، ترديدُ المرثيَّة. نواح الروزخون. تسكنُ نزيهة، ثمَّ تلتفتُ إلى الجمهور.)

نزيهة (إلى الجمهور) :
لستُ من تظنُّوني.
لستُ مريم.
لستُ مرمر.
أنا نزيهة، من مدينةٍ أبعد.
جئتُ كربلاء. كما تجيءُ النساءُ الحبالى. لأطلبَ من الشفيع مرادي.

(وقفة.)

نزيهة:

الشفيعُ يعني الذي يتوسَّط. الذي يطلبُ لكَ ممَّن لا تستطيعُ أنتَ أن تطلبَ منه. كلُّ الحبالى يحتجنَ شفيعاً، لأنَّ ما في بطوننا لا يكتفي بأمَّهاتِه.

(تسكن. تأتي مريم ومرمر من جانبِ المنصَّة، تقفانِ خلف نزيهة، تنظرانِ إليها كأنَّهما تعرفانها أو لا تعرفانها.)

مرمر: من هذه؟

مريم: لا أعرف.

مرمر: لكنَّها كأنَّنا نعرفُها.

مريم: نعرفُ كلَّ النساءِ في هذه المدينة.

مرمر: ليس بالضرورة.

مريم: بلى.

(تتقدَّمانِ. تجلسانِ على جانبَيها على السجَّادة. نزيهةُ لا تلتفت.)

نزيهة (لا تنظرُ إليهما) :

لم أنزل من سطحِ النُّزُلِ ساعةً

حتى رأيتُ زوجي يدورُ بالسفينة.

السفينةُ من القضبانِ الحديديَّة،

مع مصباحٍ في الوسط، وكفٍّ برونزيَّة.

كان يدورُ بها بسرعةٍ كأنَّه سيلقي بها على الجمعِ كلِّه.

مريم: ولماذا يلقي بها؟

نزيهة: لأنَّه تَعِبَ من ذلك.

مرمر: كلَّنا تعبنا من ذلك.

نزيهة: لقد تعبَ من العزاءِ نفسه. تعبَ من أن يعدَّ الموكبَ سنةً بعد سنة، وأن يحملَ السفينةَ نفسها، وأن يدورَ في الحلقةِ نفسها. والحسينُ يموتُ كلَّ سنةٍ مرَّةً، ونحنُ نعود.

(صمت.)

نزيهة:

لكنَّ ما في بطني

سيحملُ السفينةَ هو الآخر بعد ثلاثين سنة.

(تنحني، تلمسُ بطنها بكفَّيها.)

نزيهة: ها أنا أدري أنَّه ذكر. ها أنا أدري أنَّه سيُسمَّى. كما سُمِّيَ الجميعُ. حسيناً، أو عبَّاساً، أو علياً. وها أنا أدري. كما تدري كلُّ امرأةٍ في هذه المدينة. أنَّه سيُقدَّمُ ذاتَ يومٍ لكي يحمل سفينةٍ من القضبانِ الحديديَّة، أو لسفينةٍ من الحديدِ كلِّه، والكفُّ في وسطها برونزيَّةٌ. أو ليست برونزيَّة.

(تدخلُ الجوقةُ السوداء. هنَّ الخيَّاطات، وقد تحوَّلنَ في هذا المشهدِ إلى نسوةِ كربلاء. يقفنَ في صفٍّ خلفَ نزيهة.)

الجوقة السوداء (صوتٌ موحَّد، كترديدِ مرثيَّة) : يا شفيعي.

نزيهة: يا شفيعي.

الجوقة السوداء: أدركني يا شفيعي.

نزيهة: أدركني.

الجوقة السوداء: يا غريبَ كربلاء.

نزيهة: يا غريبَ كربلاء. يا قتيل العطش.

(صمت. تنهضُ نزيهة، تنظرُ إلى الجمهور.)

نزيهة (إلى الجمهور) :

يسألني الزوج: هل أنتِ متأكِّدة؟

وأنا أقول: نعم. لن يحدثَ شيءٌ الآن. وأكذب.

لأنَّ شيئاً سيحدث.

سيحدث.

(تنحني، تجلسُ مرَّةً أخرى. مريم ومرمر تلتفتانِ إليها.)

مريم: نزيهة.

نزيهة: نعم.

مريم: نحن نعرفُك.

نزيهة: كلُّ النساءِ يعرفنَ بعضهنَّ.

مرمر: ليس بالضرورة.

نزيهة: بلى.

(وقفة.)

مريم: هل الذي في بطنكِ ذكر؟

نزيهة: ذكر.

مرمر: وهل سيُسمَّى حسيناً؟

نزيهة: حسيناً.

مريم: وهل سيُقدَّم؟

نزيهة (تلتفتُ إليها ببطء) : كما يُقدَّمُ الجميع.

(صمت طويل.)

مرمر: نحن خيَّاطتان.

نزيهة: أعرف.

مرمر: نحن نخيطُ القمصانَ التي تُلبسُ في الجبهة.

نزيهة: أعرف.

مريم: ما اسمُ ابنكِ، إذن، يا نزيهة؟

نزيهة (ببطء) :

سأسمِّيهِ حسيناً.

وسأخيطُ له قميصاً.

وسيُؤخذُ هذا القميصُ ذاتَ يومٍ إلى الجبهة.

وأنتما. يا مريم، يا مرمر. لن تخيطا قميصَه.

لكنَّكما ستخيطانِ قميصاً لابنِ امرأةٍ أخرى مثلي.

وهي ستخيطُ قميصاً لابني.

(صمت تامّ.)

نزيهة: هل تفهمانِ ما أقول؟

مريم: نفهم.

مرمر: نفهم.

(تتقدَّمُ الجوقةُ السوداء إلى مقدِّمةِ المنصَّة.)

الجوقة ١: هذا اسمُه: دائرةُ الأمَّهاتِ المتبادلة.

الجوقة ٢: الواحدةُ تخيطُ قميصاً لابنِ الأخرى.

الجوقة ٣: الأخرى تخيطُ قميصاً لابنِ الأولى.

الجوقة ٤: الابنُ الأوَّلُ يموتُ في الجنوب.

الجوقة ٥: الابنُ الثاني يموتُ في الشمال.

الجوقة ٦: الأمَّهاتُ يلتقينَ في الحدادِ مرَّةً واحدةً، ثمَّ يفترقن.

الجوقة ٧: والقمصانُ تعودُ في صندوق. لا شيءَ يعودُ معها.

(صمت طويل. حامل النعش يتقدَّمُ خطوتَين، يتوقَّفُ خلف نزيهة، لا يلمسها، يرفعُ يديه كأنَّه يباركها أو يعتزمُ أن يأخذَ شيئاً من بطنها.)

نزيهة (لا تلتفت، لكنَّها تعلمُ بوجوده) : ما زال مبكِّراً.

(حامل النعش يتراجع، يعودُ إلى مكانه.)

نزيهة (إلى مريم ومرمر) : سأغادرُ الآن. سأدخلُ الضريحَ، ثمَّ سأعودُ إلى النُّزُل، ثمَّ سألدُ.

مريم: هل ستلدينَ في النُّزُل؟

نزيهة: أو على بلاطِ المضجع.

مرمر: والطفل؟

نزيهة: سيكونُ وفيَّاً.

(تنهضُ ببطء. تحملُ بطنها كأنَّها تحملُ سفينة. تتَّجهُ إلى عمقِ المنصَّة، نحو القبَّة. الجوقةُ السوداءُ تفسحُ لها الطريق. تلتفتُ مرَّةً أخيرة.)

نزيهة: يا مريم. يا مرمر.

مريم: نعم؟

نزيهة: خُذا أمنيَّةَ القردِ منّي. لا تحملاها أنتما. هي ثقيلة.

(تختفي خلف القبَّة. الجوقةُ تتَّجهُ بالتدريجِ إلى مكاتبِ الخياطة، تتحوَّلُ مرَّةً أخرى إلى خيَّاطات. تجلسُ مريم ومرمر مكانها على السجَّادة.)

مرمر: يا مريم.

مريم: نعم؟

مرمر: ليس ابنُها وحده.

مريم: أعرف.

مرمر: كلُّ الأبناء.

مريم: أعرف.

(صمت.)

مرمر: وأنتِ وأنا، لم ننجب.

مريم: لم ننجب.

مرمر: هذه ميزة.

مريم: أم لعنة؟

(صمت طويل.)

مرمر: لا أعرف.

مريم: لا أعرف.

(صمت كامل. صوتُ ماكنةِ خياطةٍ يبدأ يطقّ، خفيفاً، ثمَّ آخر، ثمَّ آخر، حتى يملأ المسرحَ كلَّه.)

الجوقة كاملةً (من مقاعدها، صوتٌ واحد) :

طاق

طاق

طاق

طاق

طاق

طاق

طاق

(الإضاءةُ تخفت. القبَّةُ تختفي. مريم ومرمر تنهضانِ ببطء، تتَّجهانِ إلى مكاتبِ الخياطة، تجلسانِ.)

(الجوقة ١ تنهضُ من ماكنتها، تتَّجهُ إلى الحجر.)

الجوقة ١ (إلى الجمهور) :

أيُّها السادة، أيَّتها السيِّدات. نهايةُ الفصلِ الأوَّل. الفصلُ الأوَّلُ. كما رأيتم. كان عن النساءِ والمكائن. الفصلُ الثاني. كما ستَرَون. سيكونُ عن الموتى وكيف يعودون.

(وقفة.)

الجوقة ١:

في الاستراحةِ التالية، يُسمحُ لكم بالخروج، بشربِ الشاي، بالكلامِ مع بعضكم.

لكنَّنا. نحنُ الخيَّاطات. لا نخرج.

نحنُ ننتظركم هنا.

في مواضعنا.

في صمتنا.

في ما نخيطُه بَعدُ.

(تعودُ إلى ماكنتها.)

الجوقة كاملةً (كهمسٍ نهائيّ) :

طاق... طاق... طاق...

في الظلام

يأتي المختلس الزاني

يأتي الوغد الزنيم

في الظلام

يأتي المصاب في القلب بشظية

في الظلام
يأتي الحلم الدموي
مَنْ يودُّ الاحتجاج
مَن يودُّ السخرية
مَن يودُّ الانتظار حتى آخر الحكاية!

(ظلمةٌ كاملة. صمتٌ ثقيل.)

★ استراحة ★

(عشرون دقيقة)

# الفَصْلُ الثَّاني

**« القطارات الليلية »**

**المَشهَدُ الأَوَّل/**

(تنفتحُ الإضاءةُ بعد الاستراحةِ على فضاءٍ مختلفٍ تماماً. اختفَت مكاتبُ المعمل. في وسطِ الرُّكْحِ صفَّانِ متقابلانِ من الساعاتِ المعلَّقةِ على هيكلٍ خشبيٍّ متدلٍّ من السقف. اثنتا عشرةَ ساعةً جداريَّةً قديمة، "بنادلُها" تتأرجحُ بإيقاعاتٍ مختلفة. تحتَ الساعات، منضدةٌ واسعةٌ متراكمٌ عليها حطامُ ساعاتٍ مفكَّكة. في عمقِ الخشبة. على نفسِ محاذاةِ التابوتِ المختفي في الفصلِ الأوَّل. يلوحُ صفٌّ من التوابيتِ الخشبيَّة، عددُها سبعة، متقاربة، مطليَّةٌ بالأبيض، مكتوبٌ عليها بخطٍّ أحمرَ عناوينُ غير مقروءة. الإضاءةُ خافتةٌ برتقاليَّة. كأنَّنا في قبوٍ تحتَ بيت.)
(الجوقةُ موزَّعةٌ في الأركان، يلبسنَ. لأوَّل مرَّة. ملابسَ سوداءَ بدلاً من منامةِ المعمل. في الوسط، خلفَ المنضدة، يجلسُ الساعاتي. رجلٌ في التسعين، أشيبُ ضئيل، عيناه مشدودتانِ خلف منظارٍ مكبِّر، يفكُّ ماكنةَ ساعة. بجوارِه، على دكَّةٍ خشبيَّة، حامل النعش. لا ينظرُ أحدهما إلى الآخر.)

(تنهضُ الجوقة ١ من مكانها، تتَّجه إلى مقدِّمةِ المنصَّة.)

الجوقة ١ (إلى الجمهور) :

أيَّتها السيِّدات. أيتها الآنسات، ويا أيها السَّادة.

الفصلُ الثاني.

أنتم خرجتُم لشربِ الشاي والقهوة والمرطبات.

ونحنُ .كما وعدنا .بقينا.

في الاستراحةِ التي مضَت،

لم ينقضِ شيء.

الوقتُ في هذا المكانِ لا يمضي.

الوقتُ في هذا المكانِ يُفكَّك.

وهذا .كما ستَرَون .هو الفرق.

الفراغ وحده يجلس فوق الكراسي.

(تعودُ إلى مكانها. تدقُّ ساعةٌ من الساعاتِ المعلَّقة دقَّةً واحدة. يستمرُّ تأرجحُ بنادلها بإيقاعَين مختلفَين، الواحدةُ متأخِّرةٌ عن الأخرى. صوتُ تكتاكٍ متواصلٍ، تك تك تك تك كإيقاعِ مكائنِ خياطةٍ بطيءٍ بطيءٍ بطيء.)

(يدخلُ عليٌّ .فتى في السابعةَ عشرة، حليقُ الرأس، حقيبةٌ على كتفه .من جانبِ المنصَّة. يتوقَّف، ينظرُ حوله. لا يراه الساعاتي. يتقدَّمُ ببطء.)

عليّ: السلامُ عليكم.

(الساعاتي لا يرفعُ رأسه.)

الساعاتي: وعليكم.

علي: هل هذا دكَّانُ إصلاح الزمن؟

الساعاتي (دون أن يرفعَ رأسه) : هذا دكَّانُ التفكيك. تفكيك الزمن.

علي: ماذا قلتَ؟

الساعاتي: قلتُ هذا دكَّانُ التفكيك. الإصلاحُ له مكانٌ آخر.

علي: وأين يكون؟

الساعاتي: لا أعرف. لم أزره منذ زمنٍ طويل.

(يرفعُ رأسه أخيراً، ينظرُ إلى علي. يزيلُ المنظارَ المكبِّر.)

الساعاتي: أنتَ صغيرٌ لكي تسأل عن الزمن.

علي: أنا في السابعةَ عشرة. رأسي مليء بالحجر، قدماي محشوتان بالثلج.

الساعاتي: هذا صغير، رغم ذلك.

(ينظرُ إلى يدِ عليّ.)

الساعاتي: ماذا تحمل؟

علي: صورة.

الساعاتي: صورةُ من؟

علي: أبي.

الساعاتي: أين أبوك؟

علي: ماتَ.

الساعاتي: أين ماتَ؟

علي: في بيتِ عمَّتي. ثمَّ دفنوه في مقبرةِ الأجداد.

الساعاتي: ولِمَ جئتَ إليَّ بصورته؟

علي: قالوا إنَّكَ تصلحُ كلَّ ما تَلِف.

الساعاتي (يضحكُ ضحكةً صغيرة، مريرة): أنا أصلحُ الساعات. لا أصلحُ الآباء.

علي: لكنَّ الساعةَ نوعٌ من الأب.

(صمت. ينظرُ الساعاتي إلى علي نظرةً طويلة.)

الساعاتي: من قال لكَ ذلك؟

علي: لا أحد. خَطَر لي هذا الآن فقط.

الساعاتي: خَطَر لي... همممم، يخطرُ للصِّبْيانِ كلامٌ كبير.

(يأخذُ الصورةَ من يدِ عليّ بحذر، ينظرُ إليها.)

الساعاتي: هل هذا أبوك؟

علي: نعم.

الساعاتي: رأيتُه مرَّةً، ربَّما، في الفاو، قبل أربعين سنة. لا أعرف. الوجوهُ تتكرَّر.

علي: لم يكن أبي في الفاو أبدا.

الساعاتي: ربما في "خضر الماي"، أو "الزبير". غير متأكد.

علي: لكني كنت سأضعه في جيب بدلتي الأيسر عابرا به الحسور والأودية المشتعلة والمدن المحترقة.

الساعاتي: كان يخدمُ على سفينةِ خيلٍ من سفنِ الإنكليز. كانوا ينقلونَ الخيلَ النجديَّةَ إلى بومباي، ثمَّ إلى ساحاتِ سباقِ بريطانيا. لم تكن الخيولُ تعرفُ أنَّها ستموتُ غريقةً في طريقِ العودة.

علي: أبي لم يخدم في أية سفينة.

الساعاتي: لا يهمّ. كلُّ الآباءِ خدموا في سفينةٍ ما. أنتَ بَسْ لم تنتبه.

(صمت طويل. يدقُّ ساعتانِ معاً، إحداهما تدقُّ خمس دقَّاتٍ والأخرى ثلاثاً. ينتفضُ علي.)

علي: أيُّ ساعةٍ هي الصحيحة؟

الساعاتي: ولا واحدة. هنَّ يتسابقنَ كالخيول. كلَّفتُ ابنتي بملئهنَّ. كلُّ ساعةٍ تدقُّ على هواها. لم أشأ توقيتَ ساعاتي بوقتٍ واحد.

علي: لِم لا؟

الساعاتي: لأنَّ الزمنَ . يا بنيَّ . لا يكونُ واحداً. في الفاو الآن ثلاثُ ساعاتٍ بعد الظهر. في بغداد . التي جئتَ منها . ثلاثُ ساعاتٍ بعد الظهرِ هي الأخرى. لكنَّ بغدادَ والفاو ليستا في الزمنِ نفسه. بينهما حربٌ كاملة. بينهما أربعون سنةً من الذكريات. بينهما ربَّما قبرُ أبيك.

(صمت.)

الساعاتي: لذا أدعُ كلَّ ساعةٍ تدقُّ على هواها. هذه هي العدالة.

(يعيدُ الصورةَ إلى عليّ.)

الساعاتي: لا أستطيعُ أن أصلحَه يا بنيَّ.

علي: لِمَ؟

الساعاتي: لأنَّ الأبَ . حين يموت . لا يتعطَّل. هو يُسحب. يُسحبُ من ساعةِ الزمنِ كأنَّه لم يكن فيها. ثمَّ تستمرُّ الساعةُ تدقّ، لكن بدونه.

(صمت طويل.)

عليّ (بصوتٍ خافتٍ) : وأمّي؟

الساعاتي: ماذا عن أمِّك؟

عليّ: هي أيضاً، لم أرَها منذ سنوات.

الساعاتي: أين هي؟

عليّ:  في القرية. لوحدها.

الساعاتي: كلُّ الأمَّهاتِ في القرى وحدهنَّ. كلُّ الآباءِ في القبور. كلُّ الأبناءِ. كما ترى. جاؤوا إلى المدينةِ يبحثون عن ساعاتيٍّ يصلحُهم. لكنِّي لا أصلحُ أحداً.

(تدخلُ مريم ومرمر من جانبِ المنصَّة، ما زالتا في ملابسهما من الفصل الأوَّل. تتوقَّفانِ في الزاوية، تنظرانِ إلى الساعاتي وعلي. يلتفتُ علي إليهما.)

عليّ (للساعاتي) : من هاتان؟

الساعاتي:  خيَّاطتان.

علي:  ما الذي تفعلانه هنا؟

الساعاتي:  تنتظران.

علي:  وماذا تنتظران؟

الساعاتي:  لا أدري. كلُّ من يدخلُ هذا الدكَّانَ ينتظرُ شيئاً. أنتَ تنتظرُ أن أصلحَ أباكَ. هما تنتظرانِ شيئاً آخر.

مرمر:  نحنُ ننتظرُ خبراً.

الساعاتي:  خبراً مِنْ مَنْ؟ عَنْ مَنْ؟

مرمر:  لا ندري.

مريم:  ربَّما أخي.

مرمر:  ربَّما زوجي.

مريم:  وأنا لم أتزوَّج.

مرمر: وأنا لم يكن لي أخ.

(صمت.)

الساعاتي: إذن أنتما تنتظرانِ خبرَ مَنْ لا تملكانه.

مرمر: بالضبط.

الساعاتي: هذه أصعبُ الانتظارات.

(تتقدَّمُ مرمر ببطء، تنظرُ إلى التوابيتِ المصفوفةِ في عمقِ المنصَّة.)

مرمر: ما هذه؟

الساعاتي: توابيت.

مرمر: لمن؟

الساعاتي: لمن سيأتي. لم يأت أحدٌ بعد. لكنَّ التوابيتَ تصلُ قبل محتوياتها بأيَّامٍ، أحياناً بأسابيع.

مريم: كيف؟

الساعاتي: البلدُ منظَّمٌ يا بنيَّتي. التوابيتُ تُصنعُ في تلك المدينة التي تعرفينها. تُنقلُ إلى محطَّةِ القطار. تنتظرُ هناك الموتى. ثمَّ يصلُ الموتى. من الجنوب، من الشمال، من الجبهة. فيُوزَّعونَ على التوابيتِ الجاهزة.

كلٌّ في تابوته.

كلٌّ إلى مدينته.

مرمر: وأحياناً يخطئونَ في التوزيع؟

الساعاتي: كثيراً. أمٌّ تتسلَّمُ تابوتاً مكتوباً عليه اسمُ ابنها، تفتحه، تجدُ ابنَ امرأةٍ أخرى.

مرمر: وماذا تفعل؟

الساعاتي: تدفنُه على كلِّ حال. تبكي عليه بالطريقةِ التي كانت ستبكي بها على ابنها. الأمَّهاتُ في هذا البلد تعلَّمنَ أن يبكينَ على أيِّ ابنٍ يصلُهنَّ في صندوق.

(صمت طويل.)

مريم: وهذه التوابيتُ سبعة.

الساعاتي: سبعة.

مريم: لمن السابع؟

الساعاتي: لا أعرف.

(تتقدَّمُ مريم ببطء، تلمسُ التابوتَ الأخير. تنظرُ إلى الخطِّ الأحمرِ على غطائه.)

مريم: مكتوبٌ هنا اسمٌ.

الساعاتي: كلُّ التوابيتِ مكتوبٌ عليها أسماء.

مريم: لكنَّ هذا الاسم... (تقتربُ أكثر)... اسمُ امرأة.

(صمت ثقيل.)

الساعاتي: نعم.

مريم: لكنَّ النساءَ لا يذهبنَ إلى الجبهة.

الساعاتي: لا يذهبنَ.

مريم: إذن كيف؟

الساعاتي: الجبهاتُ تأتي إليهنَّ.

(صمت كامل. تدقُّ خمسُ ساعاتٍ معاً بفوضى صاخبة، ثمَّ تهدأ. تتراجعُ مريم خطوتَين.)

مريم: الاسمُ مكتوبٌ بخطٍّ مشوَّش. لا أستطيعُ القراءة.

الساعاتي: الخطوطُ مشوَّشةٌ في هذه الساعة، يا بنيَّتي. هذا هو القانون.

(يدخلُ. من جانبِ المنصَّة، في زاويةٍ بعيدةٍ. الزائرُ الجنديّ. يحملُ حقيبةً قماشيَّةً صغيرة. يتوقَّفُ على مسافة. لم يلحظه أحد.)

الزائر (إلى الجمهور) : أنا الذي ركبَ الدرَّاجة في شارع النخيل، وعلَّقَ هذه الحقيبةَ بمقودها. أنا الذي عبرَ القنطرة وجلسَ على الحصيرِ تحتَ شجرةِ البمبر. أنا الذي أَرْجَحَ حليمةَ الطفلة على الأرجوحةِ بين النخلتين. وأنا. كما سوف تعلمون، كاذبٌ.

(يتقدَّم.)

الزائر (إلى الجمهور) : ابنُها. عليّ. صديقي. كان صديقي. ماتَ في الجبهةِ منذ خمسةَ عشرَ يوماً. عزمتُ أن آتيَ لأخبرها. وحين وصلتُ، حين رأيتُ التنُّورَ متَّقداً، حين رأيتُ الطفلةَ تخرجُ من خلفِ السقيفة. وحين سألَتني الجدَّةُ: كيف هو؟ قلتُ: بخير. ويبعثُ بسلامه إليكم ولطفلتِه حليمة.

(وقفة طويلة.)

الزائر:

أنا كذبتُ يا سادة.

كذبتُ لأنَّ التنُّورَ كان متَّقداً،

والخبزَ على وشكِ النضج،

وحليمةَ تطلبُ أن أُمَرجِحَها،

وأنا. في الطريقِ. أكلتُ من ثمرِ التوتِ على الجادَّة الترابيَّة.

كذبتُ لأنَّ بيتاً كبيتها

لا يقبلُ الخبر.

(يتوقَّف. يلتفتُ إلى مريم ومرمر، اللتَين تنظرانِ إليه الآن.)

الزائر: سامحاني. كان يجبُ أن أقولَ شيئاً.

مرمر: ماذا تقول؟

الزائر: لا أعرف. كنتُ أفكِّرُ في الطريقِ وأنا أهزُّ أرجوحةَ الطفلة.

مرمر: ماذا كنتَ تفكِّر؟

الزائر: كنتُ أفكِّرُ أنَّ كلَّ من يموتُ في الجبهة، يتحوَّلُ. في لحظةِ موتِه إلى أرجوحةٍ مشدودةٍ بين نخلتين.

(صمت.)

الزائر:

وأنَّ كلَّ طفلةٍ في القرى، تجلسُ في تلك الأرجوحة.

وأنَّ كلَّ جدَّةٍ، تخبزُ في تنُّور، ولا تعرف.

(يتقدَّمُ عليّ.)

عليّ: هل أنتَ من الجبهة؟

الزائر: كنتُ.

علي: هل رأيتَ أبي هناك؟

الزائر: لا أعرفُ أباك.

علي: كان اسمُه... (يفتحُ الصورة)... اسمُه مكتوبٌ هنا.

(يُريهِ الصورةَ. ينظرُ الزائرُ الجنديُّ إليها.)

الزائر: لا، لم أره أبداً.

عليّ: كان يلبسُ سِدارة أو شفقة أو بيريه.

الزائر: كلُّ الآباءِ يلبسونَ شفقات. كلُّ الأبناءِ. هذه الأيَّام. يحلقونَ رؤوسهم.

علي: هل ماتَ في الجبهة؟

الزائر (ببطء) : أبوكَ ماتَ قبلَ الجبهة. هذا ما قلتَ.

علي: نعم. ماتَ قبل الحرب.

الزائر: هذه ميزة.

علي: كيف؟

الزائر: ماتَ موتاً واحداً، ليس أكثر. من يموتُ في الحربِ. يا فتى. يموتُ مرَّتَين. مرَّةً في الجبهة، ومرَّةً حين يصلُ خبرُه إلى أهله.

علي: والمرَّةُ الثالثة؟

الزائر: المرَّةُ الثالثة، حين تأتي رسائلُ زميل له مثلي، إليهم، يكذبُ فيها ويقول: إنه بخير. وهو يبعثُ لكم بسلامه.

(صمت طويل. الساعاتي ينحني على منضدته، يستأنفُ تفكيكَ ماكنته. الإيقاعُ المتواصلُ للساعاتِ يستمرّ. الجوقةُ تتحرّكُ خطوةً إلى الأمام.)

الجوقة ٢: أيُّها السادة.

الجوقة ٣: الموتُ في هذه المسرحيَّةِ له ثلاثُ طبقاتٍ:

الجوقة ٤: الأبُ الذي ماتَ في حوشِ بيت على يدِ مرضٍ صامت.

الجوقة ٥: الابنُ الذي ماتَ في خندقٍ على يدِ شظيَّةٍ صرخَت ثمَّ صمتَت.
الجوقة ٦: الأختُ التي ماتَت في معمل على يدِ ماكنةِ خياطةٍ لم تهدأ.
(صمت.)
الجوقة ٧: الطبقاتُ الثلاث في عمقِ المنصَّةِ نفسها. لكنَّها لا تلتقي إلَّا في صدرِ المتفرِّج.

(يدخلُ. من خلفِ المنصَّةِ. حامل نعشٍ آخر، ينضمُّ إلى الأوَّل. الاثنانِ يقفانِ خلف التوابيتِ السبعة. لا يلمسانِ شيئاً.)

مرمر (للساعاتي، بصوتٍ خافت) : يا ساعاتيّ.
الساعاتي: نعم.
مرمر: كيف أعلم ما إذا كان الخبرُ سيأتيني؟
الساعاتي: كلُّ الأخبارِ تأتي. هذه هي القاعدة.
مرمر: وما الذي يأتي بعدها؟
الساعاتي: لا شيء. هذه هي القاعدةُ الثانية.

(تنحني مرمر ببطء، تجلسُ على الأرض، تدفنُ وجهها في يديها. مريم تتَّجهُ إليها، تنحني، تضعُ يدها على كتفها. لا تتكلَّمان.)
(الزائرُ الجندي يتَّجهُ إلى التوابيتِ السبعة. يتوقَّفُ أمامَ التابوتِ الأخير. تابوتِ الاسمِ النسائي. يفتحُ غطاءه ببطء.)
(التابوتُ فارغ.)

الزائر (إلى الجمهور) :

فارغ. كما توقَّعتُ. لكنَّ محتوياتِه. كما قلتُم سابقاً. ستصل. بعد أيَّامٍ. أو بعد أسبوع.

(يغلقُ التابوتَ ببطء. يتراجع.)

الزائر: عليَّ أن أعودَ إلى الجبهة.

عليّ: هل تأخذني معك؟

الزائر: لستَ بالعمر المطلوب.

علي: سأكونُ في ذاك العمرِ سنةً بعد أخرى.

الزائر: ثمَّ تأتي.

علي: ثمَّ أعود.

الزائر: في صندوق.

(صمت طويل. عليٌّ ينظرُ إلى الأرض. الجنديُّ الزائرُ يتَّجهُ إلى مقدِّمةِ المنصَّة، يرفعُ كفَّه. كأنَّه يأخذُ تحيَّةً عسكريَّةً. ثمَّ يخرج.)

(صمت. الساعاتي ينظرُ إلى علي.)

الساعاتي: يا فتى.

علي: نعم.

الساعاتي: خُذ صورةَ أبيك. لا أستطيعُ أن أصلحها.

علي: لكنَّكَ قلتَ في البداية...

الساعاتي: في البدايةِ لم أكن أعرف. الآن أعرف. الصورةُ ليست ساعة.

عليّ: وما هي إذن؟

الساعاتي: شاهدةُ قبر.

(يعطيه الصورة. علي يأخذها، ينظرُ إليها طويلاً.)

عليّ (إلى الصورة) :

يا أبي.

أنا لم أرَك.

لكنَّ صورتَكَ في يدي.

ويدي، كما سترى، ستحملُ ذاتَ يومٍ بندقيَّة.

(صمت.)

عليّ: سامحني.

(يخرج. الجوقةُ تتَّجهُ إلى الأمام، تقفُ في صفٍّ.)

الجوقة ١:

ابنُ الأب

ذهبَ يبحثُ عن أبيه.

لم يجده.

سيجدُه في الجبهة.

الجوقة ٢:

هذه. يا سادة. طريقتُنا في توريثِ الموتى.

الجوقة ٣:

الأبُ يموت.

الابنُ يبحث.

الابنُ يموت.

ابنُ الابنِ يبحث.

الجوقة ٤: وهكذا حتى ينفدَ الأبناء.

الجوقة ٥: ولن ينفدوا.

الجوقة ٦: الأرضُ خصبة.

الجوقة ٧: الأمَّهاتُ كثيرات.

(صمت طويل. الساعاتي يستمرُّ في تفكيكِ ماكنته. تهدأُ الساعاتُ تدريجياً. مريم ومرمرُ ما زالتا على الأرض، متلاصقتَين. الإضاءةُ تخفتُ ببطء.)

الساعاتي (إلى نفسه، أو إلى الجمهور. لا ندري) :

الساعاتُ تتسابقُ كالخيول.

والخيولُ تموتُ في عرضِ البحر.

والبحَّارةُ يعودون،

يفتحونَ دكاكينَ صغيرة،

يفكُّونَ الساعاتِ الواحدةَ بعد الأخرى،

ينتظرونَ فتى يأتي بصورةٍ، يقولُ له: أَصْلِح أبي.

(صمت.)

الساعاتي: والأبُ، يا سادة، لا يُصلَح. الأبُ يدقّ، على هواه، حتى ينفدَ زنبركُه، ثمَّ يسكت.

الجوقة بكاملها: (صوتا واحدا)
في الظلام
يأتي الوغد الزنيم
في الظلام يأتي المختلس الزاني
في الظلام يأتي المصاب في القلب بشظية
في الظلام يأتي الحلم الدمويّ
من يَودُّ الاحتجاج
من يَودُّ السخرية
من يَودُّ الانتظار
حتى آخر الحكاية..
(تدقُّ ساعةٌ ثلاثَ دقَّاتٍ بطيئة. الإضاءةُ تخفتُ تماماً. ظلمة.)

# المَشهَدُ الثَّاني/

(ضوءٌ بنفسجيٌّ خفيف. الرُّكْحُ تحوَّلَ إلى شيءٍ أشبه ببيتٍ قديم. سلَّمٌ في وسطِ المنصَّةِ يصعدُ إلى منصَّةٍ أعلى. على يمينِ المنصَّةِ باب، على يسارها بابٌ آخر، وفي عمقها بابٌ ثالث. الأبوابُ موصدة. الإضاءةُ توحي ببيتٍ مجهور. صمت.)

(تتوسَّطُ المنصَّةَ كتلةُ لحاءٍ لزجة. إنها العمَّةُ السوداء. امرأةٌ ضخمة، عباءةٌ سوداءُ كثيفة، رأسٌ كأنَّه منحوتٌ من خشبِ شجرةٍ معمِّرة. تجلسُ على كرسيٍّ خشبيٍّ مرتفع. عيناها مغلقتان. لا تتحرَّك.)

(تدخلُ مريم ومرمر من الجانب. تنظرانِ إلى البيت. مرمرُ منذ المشهدِ السابق يبدو عليها التعب.)

مرمر: أين نحن؟

مريم: لا أعرف.

مرمر: ليس الدكَّان.

مريم: ليس المعمل.

مرمر: ليس الغرفة.

مريم: ليس سوقَ الجمعة.

(تتقدَّمانِ بحذر. كتلةُ اللحاءِ العمَّةُ السوداء تفتحُ عينَيها ببطء. عيناها رماديَّتانِ كالإسمنت.)

العمَّة السوداء: من دَخَل؟ مَنْ هناك؟

(مريم ومرمر تتوقَّفان.)

العمَّة السوداء: أَجِبنَ. من دَخَل؟

مرمر: لا نعرف. نحن خيَّاطتان.

العمَّة السوداء: خيَّاطتان؟ كيف دخلتما؟

مريم: البابُ كان مفتوحاً.

العمَّة السوداء: البابُ مفتوحٌ دائماً. لكنَّكما تخيَّرتما الدخول.

مرمر: لم نتخيَّر. وجدنا أنفسنا هنا.

العمَّة السوداء (تضحكُ ضحكةً طويلة مخنوقة) :
هذا ما يقولُه الجميع، «وجدنا أنفسنا هنا».
وجدتم أنفسكم. يا أيّتها الخيَّاطتان. في بيتي.
هل تعرفانِ ما هذا البيت؟
مرمر: لا.
العمَّة السوداء: هذا منزول النساء. "كَلَّجيَّة" يعني.
(صمت.)
العمَّة السوداء: سبعُ غرف. سبعُ نساء. سبعةُ مصائر. الباحثاتُ يدخلنَ. يدُرنَ. يخرجنَ كأنَّهنَّ لم يدخلن. لكنَّ شيئاً منهنَّ يبقى هنا.
(تلتفتُ إلى البابِ الأوَّل، على اليمين.)
العمَّة السوداء: ادخلنَ الغرفةَ الأولى.
مريم: ماذا فيها؟
العمَّة السوداء: الأولى منكما.
(صمت.)
مرمر: ماذا تعنين؟
العمَّة السوداء: ادخلنَ.

(تتَّجهانِ ببطء إلى البابِ الأوَّل. مريم تفتحه. ينفتحُ البابُ على دائرةِ ضوءٍ في مؤخِّرةِ المنصَّة. تدخلُ امرأةٌ من الجوقة، تلبسُ ثوباً امتلأ بتفَّاحاتٍ مقسَّمةٍ بين الأبيضِ والأسود. هي الزائرةُ التي أقسمت على مصاحبة موكب «السفينة »، تقفُ في الدائرة، تنظرُ إلى الجمهور.)

المرأةُ الأولى (إلى الجمهور) :

أنا الزايرة.

بيتي الآن في طرفِ المدينة.

لي زوجٌ يأكلُ معي اللحمَ في المساء

ويغلقُ عليَّ البابَ في الصباح.

لكنَّ بيتي الأوَّلَ هنا.

هذا البيتُ قبل سنوات كان بيتي.

كنتُ أستقبلُ فيه مئاتَ الأقدامِ يوميَّاً.

كانوا يقولونَ لي: يا أميرة.

والله.. كان هذا هو اسمي.

(تلتفتُ إلى مريم.)

المرأةُ الأولى: لكنَّكِ يا مريم يدعوكِ الغجريُّ بنفسِ الاسم. هذا غريب، أليس كذلك؟

مريم: كيف تعرفينني؟

المرأةُ الأولى: كلُّنا نعرفُ بعضَنا.

مريم: غير صحيح.

المرأةُ الأولى: بيتي الأوَّلُ هذا لم أتركه تماماً.

كلَّما عُدتُ، أجدُ غرفتي البنفسجيَّةَ كما كانت.

البابُ بقفلٍ على شكلِ قلب.

القلبُ متحجِّر.

الطهارةُ في القفل، لم تتبدَّد.

(صمت.)

المرأةُ الأولى: بعد أن أغادرَ غرفتي، أصعدُ السطح. هناك مئذنةٌ قديمة، على رأسها عشٌ لَقْلَقٍ.

كان اللَّقلقُ يعودُ كلَّ غروب.

كان يعرفُ صوتَ الأذان.

وكنتُ. من غرفتي. أسمعُه يحطّ فوق المئذنة.

هذا كان يعطيني الطمأنينةَ بعد يومٍ من صراع الأجساد المتعرقة.

(وقفة طويلة.)

المرأةُ الأولى: بكت المئذنة

عندما جاء الغريب اشتراها

وبنى فوقها مدخنة.

لكنَّ اللقلقَ هجرَ عشَّه.

والمئذنةَ ما زالت تؤذِّن،

لكن ليس لأحد.

(تعودُ إلى الظلام. البابُ يغلقُ من تلقاء نفسه.)

العمَّة السوداء: ادخلنَ الغرفةَ الثانية. هيا.

(تلتفتُ مريم ومرمر إلى البابِ الأيسر. تفتحُه مرمر. ينفتحُ على دائرةِ ضوءٍ أخرى. تدخلُ نزيهة. حُبلى. تقفُ في الدائرة.)

نزيهة (إلى الجمهور) : أنا نزيهة. رأيتموني في الفصلِ الأوَّل. أنا ما زلتُ حبلى. لم ألِدَ بعدُ. في هذا البيتِ، في غرفتي الثانية، أنتظرُ المخاض. الزوجُ في مكانٍ آخر. هو دائماً في مكانٍ آخر.

(تنظرُ إلى مرمر.)

نزيهة: يا مرمر. أنتِ لو تعلمين كيف هي غرفتي، الغرفةُ التي لن تدخليها أبداً.

مرمر: لِمَ لن أدخلها؟

نزيهة: لأنَّكِ لن تلدي.

مرمر: ما يدريك؟

نزيهة (تبتسمُ ابتسامةً ميتةً): ماكنةُ الخياطةِ تنزفُ دمكِ كلَّ يوم. لا يبقى دمٌ للولادة. هذا ما تعرفينه، لكنَّكِ لا تريدينَ أن تقوليه.

(صمت.)

مرمر: لستِ محقَّة.

نزيهة: ربَّما. لكنَّكِ حتى الآن لم تَحبلي.

مرمر: لم يكن عندي رجل.

نزيهة: هذا أيضاً اختيار. الاختياراتُ ضدَّ الولادةِ كثيرة. ماكنةُ الخياطة. الإيجار. السلَّمُ المظلم. أختُكِ التي تبكي في الأعلى. هل هذه كلُّها أقدار، يا مرمر، أو اختياراتكِ المتكرِّرة؟

(صمت طويل. تنحني مرمر. تدفنُ وجهها.)

نزيهة (إلى الجمهور) : في غرفتي، يدخلُ الزوجُ ثمَّ يخرج. يأتي ثمَّ يذهب. الطفلُ في بطني يدخلُ ثمَّ ذاتَ يومٍ سيخرج. يأتي ثمَّ يذهب. كلُّ ما يدخلُ هذه الغرفة، يدخلُ كي يخرج. هذا قانونُ الغرفة.

الجوقة: (بصوت واحد قوي وعال)

في الظلام
يأتي المصاب بعطر التفاح
ورائحة "الديرم" ولون الحناء
في الظلام
يأتي المختلس الزاني
في الظلام
يأتي المصاب في القلب بشظية
في الظلام
يأتي الوغد الزنيم
في الظلام يأتي الحلم الدموي
فمن يود منكم الاحتجاج
من يود السخرية؟
من يود الانتظار
حتى آخر الكلام؟
(تعودُ إلى الظلام.)
العمَّة السوداء: هيا ادخلنَ الغرفةَ الثالثة.
(مريم تتوقَّف. تنظرُ إلى الباب.)
مريم: أخافُ.
العمَّة السوداء: خوفكِ هو الباب. اقتحميه.

(مريم تفتحُ البابَ الثالث. تدخلُ امرأةٌ من الجوقة، تلبسُ ثوبَ خياطةٍ كالصدرية الموحدة، يدها على وجهها كأنّها تخفي شيئاً.)

المرأةُ الثالثة (إلى الجمهور، تكشفُ يدها) : أنا الخيَّاطةُ التي كانت قبل مريم. سنتانِ سابقتانِ، كنتُ في صفِّها نفسه. ماكنتي كان بجوارِ ماكنتها. ذاتَ صباحٍ، الإبرةُ، لمن لا يعرف، دخلَت في عيني. لم تنتزعها بسهولة. كانت قد دخلَت عميقاً.

(تكشفُ كاملَ وجهها. عينُها اليسرى مغلقةٌ بشاش وقطن أبيض.)

المرأةُ الثالثة: المديرةُ قالت ليست غلطةَ الماكنة. كان يجبُ أن تنتبهي، فطُردتُ من عملي. والآن أقفُ على الرصيف، أطلبُ من الناسِ خبزاً وَعَطفاً. هذا ليس مكاناً. هذه غرفتي الثالثة.

(تلتفتُ إلى مريم.)

المرأةُ الثالثة: يا مريم. أنتِ في الصفِّ نفسه الآن. ماكنتُكِ هي ماكنتي. الإبرةُ التي دخلَت في عيني ما زالت في مكانها، تنتظر.

(صمت ثقيل. مريم تنحني، تلمسُ عينها بحذر، كأنَّها تتحقَّقُ أنَّها ما زالت سليمة.)

مريم: هل هذا حلم؟

المرأةُ الثالثة: لا. هذا تذكير.

(تعودُ إلى الظلام. البابُ يغلق.)

العمَّة السوداء: الغرفُ الأربعُ الباقية، في الأعلى.

(تشيرُ إلى السلَّم. مريم ومرمر تنظرانِ إلى الأعلى. السلَّمُ يمتدُّ في الظلام. لا نرى نهايته.)

مرمر: لن أصعد.

العمَّة السوداء: ستصعدين.

مرمر: لِيش؟

العمَّة السوداء: لأنَّ السلَّمَ هنا، وأنتِ هنا. ولأنَّ كلَّ سلَّمٍ. في حياتكِ. تصعدينه. مَنْ ولدَتكِ، صعدَت سلَّماً قبلكِ، لتلدكِ. وأنتِ. يا مرمر. ستصعدينَ هذا السلَّم، لتعرفي كم سلَّماً صعدتُه نساءُ هذا البيتِ قبلكِ.

(صمت. مرمر تصعدُ ببطء، مع مريم خلفها. السلَّمُ ملفوفٌ بظلام. صوتُ خطواتٍ مكتومةٍ على الخشب. تخفتُ الإضاءة. ضوءٌ أبيضُ على رؤوسهما فقط.)

(تصلانِ إلى منصَّةٍ في الأعلى. أربعةُ أبوابٍ متجاورة. الأوَّلُ بنفسجيّ. الثاني أصفر. الثالثُ أخضر. الرابعُ أبيض.)

مرمر: أيُّ بابٍ نفتح؟

مريم: كلَّها.

(تفتحانِ الأبوابَ الأربعةَ معاً. تدخلُ أربعُ نساءٍ من الجوقة، كلٌّ في دائرةِ ضوءٍ خلف بابها.)

المرأةُ الرابعة (الباب البنفسجي) :

أنا حَسْنَهْ. لقد كَبُرتُ. أمِّي كانت مثلكِ يا مريم مسحوبةً وماتَت في الثلاثين. العمَّةُ السوداءُ ربَّتني. الآن أنا مثل أمِّي تماماً، خيَّاطة.

المرأةُ الخامسة (الباب الأصفر) :

أنا بنتُ الساعاتي التي كلَّفها أن تملأَ الساعاتِ في الصباح.

ابني اسمه مرزوق، على اسمِ جدّه. ماتَ في الجبهة.

الآن، أجلسُ في القبوِ في "الفاو"، أملأُ الساعاتِ كلَّ صباح، وهي تتسابقُ كالخيول. لا أدري لماذا. لكنَّني أفعل.

المرأةُ السادسة (الباب الأخضر) :

أنا الفتاةُ في الشرفة، التي تراقبُ الأسماك. أحواضُ السمكِ الثلاثة. السمكُ يرتطمُ بالزجاجِ ويعود. السمكُ يرتطمُ بالزجاجِ ويعود. السمكُ يرتطمُ بالزجاجِ ويعود. هذه حياتي. لا أكثر.

المرأةُ السابعة (الباب الأبيض) :

أنا التي لم تولد.

التي كانت ستولدُ منكِ يا مريم، لو وُلِدَت.

التي كانت ستولدُ منكِ يا مرمر، لو وُلِدَت.

أنا الجنينُ الموؤود قبل الحمل.

أنا الغرفةُ السابعة.

(صمت ثقيل. تتراجعُ مريم ومرمر خطوتَين، تحتَ ضغطِ ما رأتاه.)

الجوقة كاملةً (يصعدنَ السلَّم، يقفنَ خلف مريم ومرمر) :

سبعُ غرف.

سبعُ نساء.

وجهٌ واحد.

(صمت.)

الجوقة ١:

كتبَ كاتبٌ ذاتَ يومٍ أنَّه رأى في حُلُمِه منزلاً ذا غرفٍ عديدة، في كلِّ غرفةٍ نساءٌ غريبات، يحاولُ أن يتذكَّرهنَّ ولا يستطيع. كتبَ محمد خضير قصَّةً عن ذلك سمَّاها «منزل النساء».

الجوقة ٢: ما لم يكتبه الكاتب: هو أن المنزلُ ليس حُلماً.

الجوقة ٣: المنزلُ هو هذا البلد.

الجوقة ٤: والغرفُ، كما رأيتم، سبعة.

الجوقة ٥: وفي كلِّ غرفةٍ امرأة.

الجوقة ٦: وكلُّ امرأةٍ هي أنتُنّ.

الجوقة ٧: كلُّكنَّ يا من جلستنَّ هنا تتفرَّجن في غرفةٍ منه، ولا واحدةٌ تملَّصَت.

(صمت تامّ. مريم تلتفتُ إلى الجمهور.)

مريم (إلى الجمهور) :

وأنتم.

أنتم أيضاً.

في غرفةٍ منها.

مرمر: في أيُّة غرفة؟

مريم: لا أدري. كلُّ من جلسَ في هذه القاعةِ الليلة، لا يدري في أيّة غرفةٍ هو.

(صمت طويل.)

(تنزلانِ السلَّم. تتوقَّفانِ أمامَ العمَّةِ السوداء. هي تنظرُ إليهما، لأوَّل مرَّةٍ، نظرةً واضحة.)

العمَّة السوداء: الآن تعرفان.

مرمر: نعرفُ ماذا؟

العمَّة السوداء: أنَّكما معروفتانِ في هذا البيتِ منذ قبلِ مجيئكما.

مريم: لم نأتِ بأنفسنا.

العمَّة السوداء: لم تأتيا بأنفسكما. لكنَّكما. في كلِّ ساعةٍ من حياتكما. تعرَّفتما إلى نفسَيكما في غرفةٍ من هذه الغرف. حَسْنَهْ التي ماتت أمُّها. الزايرةُ التي عادت إلى بيتِ البغايا. نزيهةُ الحبلى. الخيَّاطةُ التي فقدَت عينها. بنتُ الساعاتي. الفتاةُ "أمّ الأسماك" التي لم تولد بعدُ. كلُّكنَّ كلُّكنَّ.

(صمت طويل.)

العمَّة السوداء: ادخلنَ الآن، أو اخرجنَ.

مريم: نخرج.

العمَّة السوداء: هكذا تفعلنَ جميعاً. تهربنَ دوماً.

(تلتفتُ بعيداً، تنظرُ إلى الأعلى. إلى المئذنةِ التي لا نراها. وتصمت.)

(مريم ومرمرُ تتَّجهانِ إلى الخارج. تتوقَّفُ مريم على العتبة.)

مريم: أيَّتها العمَّة.

العمَّة السوداء: نعم.

مريم: أيَّةُ غرفةٍ كانت غرفتُك؟

(صمت طويل.)

العمَّة السوداء: كلُّ الغرف.

مريم: كيف؟

العمَّة السوداء: لأنَّني. يا بنيَّتي حارسةُ البيت. الحارسةُ تكونُ في كلِّ غرفةٍ، وفي لا غرفة. هذه هي وظيفتي. أنا من يفتحُ الأبوابَ لكلِّ من يأتي. ثمَّ يغلقها بعد أن يذهب.

(صمت.)

العمَّة السوداء: لكنَّ بابي أنا، لم يفتحه أحد. ليس لي باب. لا أدري إن كان هذا فضلٌ من الله، أم لعنةٌ.

(تخرجُ مريم ومرمر. الإضاءةُ تخفتُ تدريجياً. تبقى العمَّةُ السوداءُ وحدها على الكرسي. من بعيدٍ، يؤذِّنُ المؤذِّن. صوتُ الأذانِ يملأُ المنصَّة. صوتُ المؤذِّنِ شخصيٌّ، مكسور، كأنَّ المؤذِّنَ يبكي وهو يؤذِّن.)

العمَّة السوداء (إلى الأذان، إلى نفسها) :

يا أيُّها المؤذِّنُ القديم

لَقْلَقُكَ هجرَ عشَّه

وأنتَ ما زلتَ تؤذِّن

لأيِّ غرفةٍ تؤذِّن؟

لأيَّةِ امرأةٍ تعزفُ كلماتُك؟ لأيِّ بيت؟

(لا جواب. تختفي الإضاءةُ كلِّياً. ظلمة.)

(صوتُ الأذانِ يستمرُّ في الظلامِ لخمسَ عشرةَ ثانية، ثمَّ ينقطع. صمت ثقيل.)

الجوقة: (بصوت خفيض يتدرج حتى يتلاشى مع الظلام)

في الليل

يأتي المصاب في القلب بشظية

فمن يود الاحتجاج منكم
من يجرؤ على السخرية
من ينتظر لكي يعرف
باقي الحكاية،
في الليل..

## المَشهَدُ الثَّالِث/

(ضوءٌ أحمرُ خفيف. الرُّكُحُ في أكملِ تجلّياته التراجيديَّة. كلُّ العناصرِ التي رأيناها في الفصولِ السابقةِ متجمّعةٌ في هذا الفضاءِ الأخير: مكائنُ الخياطةِ السبعُ متناثرة، مع خيَّاطاتٍ على رؤوسها منحنيات. الساعاتُ المعلَّقةُ ببنادلها (ببندولاتها) المتأرجحة؛ التوابيتُ السبعةُ المصفوفة؛ ضريحٌ خلفيٌّ مذهَّبٌ بشكلِ قبَّةِ ضريح الإمام بكربلاء؛ سلَّمٌ يصعدُ في الفراغ؛ شجرةُ بمبرٍ منحوتةٌ من خشب، تتدلَّى منها أرجوحة على الجدارِ الخلفي مرسومةٌ بالفحم. خيولٌ سوداءُ ذاتُ أرجلٍ رشيقةٍ عديدةٍ، كأرجلِ العناكب.)

(الجوقةُ السبعُ نساء على مقدِّمةِ المنصَّة، ينظرنَ إلى الجمهور. الإضاءةُ تلوِّنهنَّ بالأحمر.)
الجوقة كاملةً (صوتٌ موحَّد، كصلاةٍ، أو كلعنة) :
في المملكةِ السوداء، الخيولُ تركض.
في المملكةِ السوداء، الإبرةُ تنزل.

في المملكةِ السوداء، الساعةُ تدقّ.

في المملكةِ السوداء، نحنُ يا أيُّها السادة، نحنُ.

(صمت طويل. تدخلُ مريم ومرمر من الجانب. مرمر تلهث. مريم تسندها.)

مرمر: لم أعد أستطيع.

مريم: اقتربنا.

مرمر: اقتربنا من ماذا؟

مريم: لست أدري.

(تجلسانِ على دكَّةٍ في وسطِ المنصَّة. حاملا النعشِ يدخلانِ، يقفانِ بجوارِ التوابيتِ السبعة. الإضاءةُ تنخفضُ على كلِّ شيءٍ ما عدا مريم ومرمر.)

مرمر: يا مريم.

مريم: نعم؟

مرمر: هل تذكرينَ القرد؟

مريم: أبو اللوز؟

مرمر: نعم.

مريم: أذكر.

مرمر: هل تذكرينَ أمنيَّته؟

مريم: أن لا يكونَ قرداً.

مرمر: وأن لا يعرفَ ما الذي يكونُه إذا لم يكن.

(صمت.)

مرمر: أعتقدُ أنِّي حقَّقتُ أمنيَّته.

مريم: كيف؟

مرمر: أنا لمْ أعدْ خيَّاطة.

مريم: كيف يعني؟ متى؟

مرمر (تبتسمُ ابتسامةً مريضة) : في هذه اللحظة. الآن. قلتُها لنفسي: لستُ خيَّاطة. ثمَّ سألتُ: ماذا أنا إذن؟ لم أعرف. هنيئاً، يا مريم. حقَّقتُ الأمنيَّة.

مريم: لكنَّكِ ما زلتِ في المعمل.

مرمر: المعملُ مكان. أنا لستُ مكاناً.

مريم: لكنَّ الماكنةَ في يومٍ غدٍ، حين ستأتي العطلة، ستأتي الجمعة، ثمَّ سيأتي الأحد، وستجلسين...

مرمر: لن أجلس.

(صمت ثقيل.)

مريم: ماذا تعنين؟

مرمر: أعني أنَّني .في النهاية .قبَّلتُ يدَ الساعاتي ثلاث مرَّاتٍ في حُلمي. وطلبتُ منه أن يوقفَ ماكنتي. هو الوحيدُ الذي يمكنُه أن يوقفها.

مريم: هو يصلحُ الساعات، لا المكائن.

مرمر: الفرقُ بسيط.

(صمت طويل. مرمر تنحني، تضعُ رأسها على ركبتَيها.)

(تدخلُ المديرةُ من جانبِ المنصَّة. وجهها متجمِّد، تلبسُ نفسَ البدلةِ الخاكيَّة اللون. تتجوَّلُ بين مكاتبِ الخياطة، تلامسُ كتفَ كلِّ خيَّاطةٍ، كأنَّها تحصي أشياء.)

المديرة (لنفسها) : ثلاثُمائةُ خيَّاطة. ثلاثةُ آلافِ قميص. ثلاثةُ آلافِ جندي. كلُّ جنديٍّ يلبسُ قميصاً. كلُّ قميصٍ خاطته امرأة. المعادلةُ واضحة.

(تتوقَّفُ خلفَ ماكنة مرمر المتوقفة عن العمل. تنظرُ إلى مرمر.)

المديرة: هيه، أنتِ.

مرمر (لا ترفعُ رأسها) : أنا؟

المديرة: ماكنتُكِ متوقِّفة.

مرمر: أعرف.

المديرة: عودي إليها.

مرمر: لن أعود.

(صمت. الجوقةُ كلُّها تتجمَّد. الخيَّاطاتُ على المكائن يتجمَّدنَ.)

المديرة: ما الذي قلتِه؟

مرمر: لن أعود.

المديرة: هذا يا بنيَّتي ليس خياراً متاحاً لك.

مرمر: أعلم.

المديرة: الذي لا يعمل، لا يأكل.

مرمر: أعلم.

المديرة: الذي لا يأكل، يموت.

مرمر: أعلم.

المديرة: إذن قومي. عودي إلى الماكنة.

مرمر (ترفعُ رأسها لأوَّل مرَّة، تنظرُ إلى المديرة) : لا. لن أعود.

(صمت طويل. المديرة تنظرُ إلى الجمهور. كأنَّها تستنجدُ.)

المديرة (إلى الجمهور) : هذا غير مسبوق. في تاريخِ المعمل، لم تقل خيَّاطةٌ «لا». الخيَّاطةُ تمرض، تموت، تستقيل، تحبل، "تجيب"، تهرب، لكنَّها لا تقول «لا».

مرمر (ترتفعُ نبرتها) : لا.

المديرة: يكفي.

مرمر: لا.

المديرة: سأستدعي الحرس.

مرمر: لا.

المديرة: ستُسجَنين.

مرمر: لا.

المديرة: ستُعدَمين.

مرمر: لا.

(صمت ثقيل. المديرة تتراجع. تنظرُ إلى مرمرَ نظرةً غريبة. هل هو الخوف؟ أو الحسد؟ أو الإعجاب؟ ثمَّ تخرج.)

الجوقة: (بصوت واحد)

القاعة ما زالت نفس القاعة

منذ العهد التركيّ

"العدل أساس الملك"

ماذا؟!

العدل أساس الملك؟

هههههها!!!!!!! اششششش تحكي!؟

اششششششششش اسكت..

صَهٍ، لا تحكِ

كذبٌ... كذبٌ.... كذبٌ.... كذبٌ

المُلْكُ أساسُ العدلِ

إن تملكْ سكيناً،

تملكْ حقَّكَ في قتلي.

(صمت طويل. الجوقةُ تتحرَّكُ ببطء، تتَّجهُ إلى مقدِّمةِ خشبة المسرحِ.)

الجوقة ١ (إلى الجمهور، بصوتٍ منخفض) :

أيُّها السادة. في هذه اللحظة، حدثَ شيءٌ نادر.

الجوقة ٢: امرأةٌ قالت «لا».

الجوقة ٣: في تاريخِ المعمل، في تاريخِ المدينة، في تاريخِ البلد، لم تقل امرأةٌ «لا» بهذه البساطة.

الجوقة ٤: ما الذي سيحدث؟

الجوقة ٥: لا نعرف.

الجوقة ٦: لكنَّ شيئاً يحدث.

الجوقة ٧: شيئاً يحدث.

(تعودُ الجوقة. صمت طويل. مريم تنظرُ إلى مرمر بذهول.)

مريم: يا مرمر.

مرمر: نعم؟

مريم: ماذا فعلتِ؟

مرمر: ما كان يجبُ أن أفعلَه قبل سنتين.

مريم: سيجيئونَ ليأخذونكِ.

مرمر: لن يجدوني.

مريم: ستكونينَ هنا.

مرمر: لن أكون.

(صمت.)

مرمر: يا مريم.

مريم: نعم؟

مرمر: هل تأتينَ معي؟

مريم: إلى أين؟

مرمر: لا أدري بعد. لكنَّني سأعرف. حين أقومُ من هنا، سأعرف. هذا هو الفرق.

(صمت طويل. مريم تنظرُ إلى يدَيها ملياً.)

مريم: لا أستطيع.

مرمر: لِم لا؟

مريم: لأنَّ ماكنتي ما زالت تعرفُني. لو غادرتُها، فستلحقني. لم أتحرَّر منها كما أنتِ تحرَّرتِ.

مرمر: لا تحرُّر يا مريم. كلُّ ما هناك، أنَّني قلتُ «لا». أنتِ تستطيعينَ أن تقولي «لا» أيضاً.

مريم: أعرف.

مرمر: ولكنَّكِ لن تقوليها.

مريم (بصوتٍ خافت جدَّاً) : لن أقولها.

(صمت كامل. مرمر تنظرُ إليها طويلاً.)

مرمر: حَسَناً.

(تنهض. تقتربُ من مريم. تنحني، تقبِّلُ جبهتها.)

مرمر: سأذهبُ إذن وحدي.

مريم: إلى أين؟

مرمر: إلى الغرفةِ السابعة.

مريم: أيُّ غرفة؟

مرمر: الغرفةُ التي لا بابَ لها. حيث تجلسُ العمَّةُ السوداء. حيث لا تدخلُ امرأةٌ بعد. سأدخلها. سأكونُ ربَّما الأولى.

(تستدير، تتَّجهُ إلى السلَّمِ الذي يصعدُ في الفراغ. تتوقَّفُ في الدرجةِ الأولى، تلتفت.)

مرمر: يا مريم.

مريم: نعم؟

مرمر: أخبري الغجريَّ، إذا رأيتِه، أنَّ أمنيَّةَ القردِ أبو اللوز قد تحقَّقَت.

(تصعدُ السلَّم. الإضاءةُ تضيءُ كلَّ درجةٍ تطأها، ثمَّ تُطفأ. حتى تختفي في الأعلى.)

(صمت ثقيل. مريم وحدها على المنصَّة. الجوقةُ تنظرُ إليها.)

(يدخلُ الغجريُّ من جانبِ المنصَّة. هذه المرَّةُ بدون قرده. الحبلُ الذي كان في يده، فارغ.)

الغجري: صباحُ الخيرِ يا أميرة الأميرات. شلونج اليوم!

مريم: وين القرد؟

الغجري: لقد هَرَب.

مريم: كيف؟

الغجري: حقَّقَ أمنيَّته يا أميرتي، ولم يعد قرداً.

مريم: وماذا صار؟

الغجري: لست أدري. لكنَّه... أيَّاً كان. فهو ليس هنا.

(صمت.)

مريم: وأنتَ؟

الغجري: أنا؟

مريم: ألن تهربَ أنتَ أيضاً؟

الغجري (يبتسمُ ابتسامةً تعبة) : أنا غجريٌّ يا أميرة. لا مكانَ يعرفُني. لستُ بحاجةٍ إلى الهرب. أنا في الهربِ أصلاً منذ أن وُلِدتُ.

(ينظرُ إلى مريم.)

الغجري: وأنتِ؟ أيَّتها الخيَّاطة. ماذا قرَّرتِ؟

مريم: لم أقرِّر بعد.

الغجري: عدمُ القرارِ هو أكبر قرار.

مريم: أعلم.

الغجري: أخواتُكِ كلُّهن، في الفصلَين السابقَين من هذه المسرحية، اتَّخذنَ قراراً. نزيهةُ ذهبَت إلى الضريح. عليّ ذهبَ إلى الجبهة. الزايرةُ ذهبَت إلى بيتِ بغاياها القديم. الزايرُ الجندي ذهبَ إلى الموت. حتى مرمر صديقتُكِ صعدَت السلَّم. الجميعُ قد تحرَّك.

مريم: وأنا؟

الغجري: أنتِ هنا.

مريم: أنا هنا.

(صمت طويل.)

الغجري (إلى الجمهور) :

أيُّها السادة، أيَّتها الآنسات والسيِّدات.

في المسرحيَّةِ التقليديَّة، في خاتمةِ الفصلِ الثالث،

البطلةُ تموت، أو تكتشفُ شيئاً

أو تهرب

أو تنفجر

(يلتفتُ إلى مريم.)

الغجري (مواصلا أداءه):

لكنَّ مريم لا تموت.

لا تكتشف.

لا تهرب.

لا تنفجر.

مريم، يا سادة ويا سيدات، ستبقى.

(صمت ثقيل.)

الغجري:

هذه هي التراجيديا الحقيقيَّة.

ليس الموت.

الموتُ سهل.

البقاء. في المكانِ نفسه، على الحالةِ نفسها، بعد أن غادرَ الجميعُ. هذا هو الجحيم.

(ينظرُ إلى الحبلِ الفارغِ في يده.)

الغجري: ربَّما أنا أيضاً عليَّ أن أغادر. ليس لي ما أفعلُه هنا. القردُ هَرَب. الأميرةُ لم تطلب شيئاً.

(يخرج. صمت طويل.)

(الجوقةُ كلُّها تتَّجهُ إلى مقدِّمةِ المنصَّة. تحيطُ بمريم. مريم في الوسط، على الدكَّة، وحدها.)

الجوقة ١: يا مريم.

الجوقة ٢: يا مريم.

الجوقة ٣: يا مريم.

الجوقة ٤: يا مريم.

الجوقة ٥: يا مريم.

الجوقة ٦: يا مريم.

الجوقة ٧: يا مريم.

(صمت.)

الجوقة كاملةً (صوتٌ واحد) :

الصبحُ سيطلع.

الجرس، سيدقّ.

الماكنةُ ستعمل.

وأنتِ يا مريم ستجلسينَ خلفها.

(صمت.)

الجوقة كاملةً: هذه هي حياتُكِ ولن تتغيَّر.

(صمت طويل. مريم تنظرُ إلى الأرض. تبدأُ بالبكاءِ بصمت. لا صوت. لا حركة. فقط دموع.)

(يدخلُ. من جانبِ المنصَّة. حاملا النعش. يتَّجهانِ إلى التوابيتِ السبعة. يرفعانِ التابوتَ الأخير. التابوتَ بالاسمِ النسائي. يحملانه إلى وسطِ المنصَّة. يضعانه بجوارِ مريم.)

(صمت.)

(تنظرُ مريم إلى التابوت.)

(تفتحُ غطاءه.)

(داخلَ التابوت، مطويَّةٌ بعناية، صدرية (أو منامةُ أو مريول) خيَّاطةٍ رماديَّة اللون. هذه هي منامتُها هي.)

مريم (إلى الجمهور، بصوتٍ هادئ) :

وجدتُ صدريتي. أو دشداشتي. كانت هنا، تنتظرني. كنتُ أظنُّ. حتى هذه اللحظة. أنَّ التابوتَ لجندي، أو لأبٍ ثاكلٍ، أو لليلى التي ماتَت وهي على ماكنة الخياطة.

(صمت.)

مريم: لكنَّ التابوتَ يا سادة. كان لي.

(تأخذُ الصدرية. تلبسُها فوقَ ثوبها. تجلس، تفتحُ يدَيها. تنتظرُ كأنَّها أمامَ ماكنة.)

مريم: الصبحُ سيطلع. الجرس سيدقّ. الماكنةُ ستعمل.

(ترفعُ يدَيها كأنَّها تخيط.)

مريم: طاق. طاق. طاق. طاق. طاق. طاق

(صمت تامّ.)

(الإضاءةُ تخفتُ ببطءٍ شديد. تبقى دائرةٌ واحدةٌ على مريم. ثمَّ تخفتُ هذه الدائرةُ أيضاً، حتى لا يبقى منها سوى نقطةُ ضوءٍ صغيرة على يدَيها.)

(يدقُّ بوقُ المعمل في البعيد. صوتُ مكائنِ الخياطةِ يبدأ، خفيفاً، ثمَّ يرتفعُ تدريجياً، حتى يملأ المسرح. ضوءٌ خافتٌ على المكاتبِ السبعة، حيث تجلسُ الخيَّاطاتُ السبع، يعملنَ بإيقاعٍ موحَّد.)

(الجوقة ١ تنهض، تتَّجهُ إلى مقدِّمةِ المنصَّة. تخاطبُ الجمهور.)

الجوقة ١ (إلى الجمهور) :

أيُّها السادة، أيَّتها السيِّدات.

انتهَت المسرحيَّة. لكنَّ الماكنةَ، كما تسمعون، لم تنته.

(صمت.)

الجوقة ١:

في الخارج،

الحربُ لم تبدأ بعد.

في الخارج،

العددُ التقريبيُّ للجنودِ الذين سيلبسونَ قمصانَ هذا المعمل في السنواتِ العشر المقبلة:

نصفُ مليون. مليون. مئات الألوف. ربما..

الجوقة ٢:

في الخارج،

العددُ التقريبيُّ للأمَّهاتِ اللواتي سيستلمن تابوتاً: نصفُ مليون. مليون. ربما..

الجوقة ٣:

في الخارج،

العددُ التقريبيُّ للخيَّاطاتِ اللواتي ستتورَّمُ أقدامُهن: ثلاثةُ آلاف. ستة آلاف. ربما..

الجوقة ٤:

في الخارج،

العددُ التقريبيُّ للنساءِ اللواتي سيهجرنَ الماكنة: صفر.

الجوقة ٥:

في الخارج،

العددُ التقريبيُّ للنساءِ اللواتي سيقلنَ «لا»: امرأةٌ واحدة.

الجوقة ٦:

وهذه المرأة، كما رأيتم، صعدَت سلَّماً لا نعرفُ ما بعده.

الجوقة ٧:

ربَّما ماتَت. ربَّما عاشَت. لكنَّها في كلتا الحالتَين لم تعد خيَّاطة في معمل.

الجوقة كاملةً (صوتٌ موحَّد، نهائيّ) :

وهذا، يا سادة، هو الفرقُ الوحيدُ الذي تستطيعُه امرأة في هذه المملكةِ السوداء.

الجوقة: (بأكملها مع باقي الممثلين بصوت واحد)

في الظلام يأتي المختلس الزاني

في الظلام يأتي الوغد الزنيم

في الظلام يأتي المصاب في القلب بشظية

في الظلام يأتي الحلم الدموي

فَمَنْ يودُّ الاحتجاج، من يودُّ السخرية

من الذي يجرؤ على سرد الحكاية؟

(الإضاءةُ تخفتُ كلِّياً. ظلمةٌ كاملة. يستمرُّ صوتُ مكائنِ الخياطة طاق، طاق، طاق. طاق، طاق، طاق في الظلام، لخمسَ عشرةَ ثانية ثمَّ ينقطعُ فجأة.)

(يحلُّ صمتٌ تامّ.)

—— نِهايَة المَسرَحيَّة ——

## مَلحوظَةٌ ختامِيَّة:/

اعتمدتُ في النسجِ الأخير على توازنٍ بين تسعِ قصصٍ من مجموعتين لمحمد خضير: «أمنيَّة القرد»، و«الشَّفيع»، و«المئذنة»، و«المملكة السوداء»، و«الأرجوحة»، و«التابوت»، و«الأسماك» من "المملكة السوداء"؛ و«منزل النساء»، و«ساعاتٌ كالخيول»، و«الصرخة» و«تاج لطيبوثة»، من "في درجة 45 مئوي"؛ مع تلاوين وتحشيات من قصائد للشاعر المصري أمل دنقل والشاعر العراقي بلند الحيدري والشاعر الفرنسي آرثر رامبو والشاعر العراقي حكمت الحاج، بحيث يكون كلُّ مشهدٍ بمثابةِ «طِرْس» أو «ورقةِ كَلاج» شفافة (palimpsest) كما تسمِّيها ليندا هتشيون، تستشفُّ منها قصَّةً وتلامسُ تحتها قصَّةً وتسمعُ في حافَتِها قصَّةً ثالثة.

ملاحظة لمخرج العرض: الإرشاداتُ المسرحيَّةُ مفصَّلةٌ بقدر ما يكفي لتحديدِ مَنطِقِ المنصَّةِ والإضاءة، ولكنَّها مفتوحةٌ بقدر ما يَلزمُ لِيُسَهِّلَ للمخرجِ أن يَنحَتَ رؤيتَه الخاصَّة. الجوقةُ .بسبعِ ممثِّلات .تَقومُ بأدوارٍ مُتعَدِّدةٍ في كلِّ فصل، ممَّا يَختَزِلُ التَّعدادَ الكلِّيَّ للممثِّلين إلى نَحوِ سَبعَ عشرةَ ممثِّلاً وممثِّلة. الصمت عنصر أساسي في العرض المرئي على الركح الخشبي.

# المؤلف في سطور/:

من مواليد العراق، ناحية "سيده كان"، محافظة أربيل، في سبتمبر 1957.

شاعر وكاتب مسرحي ،ناقد، مُدَوَّن وناشر.

يرأس تحرير مجلة "كناية" الرقمية الثقافية المستقلة، ويدير دار النشر التابعة لها.

أصدر أكثر من ستة وعشرين كتابا لحد الآن، نذكر منها/:

1 بغدادات، خمس قصائد نثر، 1992 ط أولى ببغداد، ط ثالثة 2014 عن مومنت للكتب والنشر، لندن .

2 الوردة بدونِ لِمَاذَا (قصائد نثر).

3 الكلام المُسْتَعاد (قصائد نثر).

4 گول بى ناڤه، لا اسم للزهرة، أشعار باللغة الكردية، منشورات دار الثقافة والنشر الكردية، بغداد 1997.

5 دليل المتحيرين، قصائد نثر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة إبداع عربي، القاهرة 2014

6 خمسة أولاد كلب، قصص قصيرة وحكايات، طبعة خاصة عن منشورات نون، بغداد 1994

7 قنبر علي، رواية قصيرة، (على النفقة الخاصة) مطبعة البياتي، بغداد، 1993.

الدرس بالعراقي، اقتباس مسرحي من يونسكو (على النفقة الخاصة) مكتب البحوث، بغداد 1995.

8 تمر العاصفة وتبقى الصحراء، قصائد نثر، منشورات مجلة "الحركة الشعرية"، بيروت 2000.

9 دروس خصوصية بالعامية التونسية، مسرحية من اللامعقول، منشورات مومنت، لندن 2017.

10 أبحاث، دراسات نقدية، منشورات مومنت، لندن 2017.

مقالات، في الفن والأدب والحياة، منشورات مومنت، لندن 2017.

11 جِنّ أو الموعد القاتل، ثلاث مسرحيات من دراما اللامعقول، منشورات مومنت، لندن 2018.

12 تلث مسرحيات بالتونسي من دراما اللامعقول، بالاشتراك مع د. زينب بن ضياف، منشورات مومنت 2019.

13 نقد التحدي والاستجابة: عرض مفاهيمي لجمالية التلقي والتواصل الأدبي كما عند "هانز روبرت ياوس"، مع تطبيق نقدي على قصيدة النثر في العراق، منشورات مومنت 2019

14 إنستغرام، قصائد نثر إنستغرامية، مومنت للكتب والنشر 2019، لندن

15 عشرون قصيدة نثر مختارة، مومنت للكتب والنشر 2020 لندن

16 مبادرات: نقديات معاصرة، دراسات وأبحاث نقدية، مومنت للكتب والنشر، لندن 2021

17 مع المجانين في مزرعة النثر، مختارات شعرية وتنظيرات، منشورات كناية بالتعاون مع كروب "مجانين قصيدة النثر"، القاهرة ستوكهولم 2022

18 سفينة الحيارى، قصائد نثر، دار لازورد للنشر والتوزيع، بغداد لاهاي 2022

19 الكيخوطي وتليها حرب، مسرحيتان من دراما اللامعقول، منشورات كناية، ستوكهولم 2022

20 غمسيس، رواية مشتركة مع عواطف محجوب، منشورات كناية 2023.

21 نوال، رواية مشتركة مع عواطف محجوب، منشورات كناية 2024.

22 التعسف، رواية مشتركة مع عواطف محجوب، منشورات كناية 2025.

23 في الشعر السويدي النسوي المعاصر، دراسة ومختارات، سلسلة كتاب كناية 2024.

24 البحث عن طوق نجاة، كتاب تذكاري صدر عام 2024 عن منشورات مجانين قصيدة النثر بالاشتراك مع منشورات كناية، تضمن دراسات نقدية عن التجربة الشعرية لحكمت الحاج مع مختارات من شعره.

25 ثلاثية الجنوب، متوالية روائية مشتركة مع الكاتبة التونسية عواطف محجوب، منشورات كناية 2025.

26 تسع قصص، قصص قصيرة وحكايا، منشورات كناية 2026.

27 القصائد النثر العشر الطوال، منشورات كناية 2026.

28 الكيخوطي وتليها حرب، مسرحيتان من دراما اللامعقول بالعامية التونسية، ترجمة دعاء فطيس، منشورات كناية 2026.

وسيصدر له قريبا:/

2 الفلسفة والشعر: أية علاقة، خمس محاولات في الموضوع، منشورات كناية 2027.

# الفهرست